الدكتور: محمود أحمد أبو صوة

دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط





منشورات ELGA

الدكتور محمود أحمد أبوصوة

دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط



منشورات ELGA
2000

شركة ELGA

هاتف: 493635 (356+)

فاكس: 493180 (356+)

E-mail: elgapub @ dream.vol.net.mt

ص.ب 536

فاليـتا - مالطـا

المحتويات

الفصل الأول
ضفتا المتوسط بين التجاذب والتبعية

الفصل الثانى
ضفة المتوسط الجنوبية: من التعاون الى التكامل

ثبت المصادر والمراجع

تمهيد

تدين الدراسات التى يتضمنها هذا "الكتيب" بالكثير للفرضية التى إقترحها Fulford فى دراسته "من الشرق الى الغرب: تجارة برقة وطرابلس المتوسطية فى القديم" والتى نشرت فى مجلة دراسات ليبية (العدد 20 السنة 1989). وأهمية هذه الدراسة، فى اعتقادى تكمن فى أنها نوهت بعاملين كان لهماالفضل فى إرساء نموذج الإبحار فى القديم؛ وهذان العاملان هما: التيارات المائية، واتجاه الرياح. وتأسيسا على ما عثر الباحثون عليه من مخلفات أثرية (الأمفورة، والنقود، والزخرف) فى مختلف بلدان المتوسط وبعض مدنه، توصل صاحب الدراسة الى النتيجة التالية، وهى ان عملية تنقل السفن بين مختلف مدن المتوسط فى القديم كانت شمالا-جنوبا.

وهذه النتيجة التى توصل اليها "Fulford" ألقت المزيد من الضوء على ظاهرة نوهت بها جل الأعمال العربية التى عالجت موضوع علاقة ضفتى المتوسط ببعضهما البعض فى العصرين القديم والوسيط. فهذه الأعمال تنبهت الى ان عاملا رئيسيا كان وعلى الدوام يدفع بسكان هذه الضفة أو تلك للعبور نحو الضفة المقابلة عبر الجزر المتناثرة فى هذا الحوض. ان عامل التجاذب/الجاذبية الذى تكاد لا تخلو منه أية دراسة من دراسات بحاث ضفة المتوسط الجنوبية، لم يتم تحليل مكوناته، إذ إكتفى أصحاب هذه الدراسات بالقول تارة بأن الجاذبية هذه والمتبادلة "قد وصلت الى حد شعر معه كل من إنتصب بإحدى الضفتين بإغراء جامح الى التقدم خطوة أخرى"[1] وتارة أخرى بأن المنتصب على إحدى الضفتين كان وعلى الدوام يمد ببصره نحو الضفة المقابلة "إما تمهيدا لوثبة أخرى من ورائها... وإما إتقاءا لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية"[2]؛ غير ان هذه الظاهرة التى وقفت هذه الأعمال فى الكشف عنها هى على درجة كبيرة من

1- الطالبى، محمد. الدولة الأغلبية (184-296هـ/800-909) نقله الى العربية المنجى الصيادى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1985، 419.

2- المدنى، أحمد توفيق. المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، بدون تاريخ، 20.

الأهمية؛ واذا ماانتقد أصحابها، عبر هذه الدراسات، فذلك يعود الى ان هؤلاء إكتفوا بالتنويه بهذه الظاهرة دون البحث فى أسبابها؛ كما يؤخذ على هؤلاء أيضا تبنيهم للنظريات الأوربية التى فرضت علينا شكلا يؤكد هيمنة مطلقة لضفة المتوسط الشمالية، وتبعية مزمنة لضفة المتوسط الجنوبية. مع ذلك فإن إثارة هؤلاء لظاهرة التجاذب كان أكثر من محفز للكتابة فى موضوع البحر الأبيض المتوسط وفق وجهة نظر أزعم بأنها مغايرة.

من ناحية أخرى إن الدراسات هذه والتى تضمنها هذا " الكتيب" تبنت، بالإضافة الىفرضية المراكز والأطراف التى تم الإعتماد عليها فى بعض أعمالى السابقة، تبنت تفاسير/إجتهادات العديد من الباحثين، من عرب وغير عرب، لم يكتفوا بوصف مراحل مختلفة من تاريخ هذا الحوض فحسب، بل عملوا كل قدر جهده/خلفيته على تأويل هذه المراحل وفق رؤى قد لا نقبلها، ولكنها أضافت بالتأكيد لدارسى تاريخ هذا الحوض جزئيات ما كانوا ليتفطنوا لها. فعيوب دراسة التاريخ من منطلق قطرى، على سبيل المثال، لا تجعل المرء ينفىعن أصحابه قدرتهم على تقصى الجزئيات التى كثيرا ما تغيب عن أصحاب الرؤى الشمولية. لذلك فإن صاحب هذا الكتيب لا يزعم أنه إكتشف علاقات لم ينتبه اليها احد من قبل، ولكنه يزعم بأنه أول من وظف هذه العوامل، والمتمثلة فى التيارات المائية، واتجاه الرياح، وعلاقة المراكز بالأطراف، فضلا عن ظاهرة التجاذب التى نوهت بها وكما سبقت الإشارة جل الأعمال المتعلقة بحوض البحر المتوسط، فى قراءة علاقات ضفتى المتوسط ببعضها البعض فى العصر الوسيط.

فبالإضافة الى اننى أعتقد بأن مجمل هذه الدراسات تبحث فى تاريخ المتوسط فى العصر الوسيط وفق منظور مغاير وأكثر دينامية، فإننى تعمدت إبراز دور ضفة المتوسط الجنوبية الذى تغاضت عنه معظم الأعمال المتعلقة بتاريخ هذا الحوض. والتركيز على هذا الجانب لم يقصد به الدفاع غير الموضوعى على شعوب هذه الضفة، وإظهارها فى شكل مغاير؛ فهكذا عمل لا يليق بباحث إرتأى كتابة التاريخ وفق منهجية أقل ما توصف بها أنها تنبذ الأحادية؛ وإنما أردت بهذا التركيز، فى حقيقة الأمر، التنويه بدور تناقلته المصادر العربية وغير العربية، ولم تلتفت اليه الأعمال العربية الحديثة الا عرضا. هذا من ناحية، من ناحية أخرى ان

الخوض فى مواضيع لها صلة بعلاقات سكان ضفتى هـذا الحـوض مـن وجهـة نظـر سكان ضفته الجنوبية لا يقصد به الإقلال من شأن الضفة الشمالية، ولا العمل على تجزئة تاريخ هذا الحوض/الإقليم.

هذا وتجدر الإشارة الى ان الدعوة الىعدم تجزئة تاريخ هذا الحوض ليست دعـوة الى إقـرار وحـدة المتوسـط التـى تبنتهـا الأعمـال الغربيـة الأولى (بـيرين علـى وجـه الخصوص) وتلقفتها العديد من الأعمال العربية الحديثـة لاحقـا، ولكنهـا دعـوة الى ضرورة تفهم طبيعة/خلفية علاقات ضفتى المتوسط فى العصرين القديم والوسـيط. فالمتوسط فـى العصـور الكلاسـيكية (الإغريقـى/الرومـانى) لم يتمتـع بوحـدة كمـا ذهبت الى ذلك المدرسة الأوربية، بل تميز بوحـدة ضفتـه الشـمالية، وبتبعيـة الضفـة الجنوبية. كما ان الإدعاء بأن العرب تسببوا لاحقا فى إنهاء وحدة هذا الحوض هى مغالطة تاريخية كبيرة؛ لأنه لم تكن هنـاك فـى الأسـاس وحـدة حتـى يقـوم العـرب بإنهائها.

ومع ذلك، فإن هذا الحوض الذى تميز بتجانس ضفافه هيأ سكانه لتعاون نتجت عنه علاقة تميزت والى حد كبير بالتكافؤ. لذلك وفى ظل هذه العلاقة لم يكـن فـى مقدور العرب إنهاء وحدة المتوسط المزعومـة. فلقـد ظلـت بيزنطـة تقاسـم العـرب أجزاء كبيرة من هذا الحوض وحتى فترة متأخرة من العصر الوسيط. ولكن العرب، وهذا ما أزعج رواد المدرسـة الغربيـة، تمكنـوا مـن تغيـير المعادلـة السـائدة فـى ظـل العصور الكلاسيكية بحيث أصبحت الضفة الجنوبية هى المركـز وأجـزاء كبـيرة مـن ضفة المتوسط الشمالية هى الطرف. لذلك، حتى وان كنت لا أعتقـد فـى ان هـذا الحوض قد تمتع بوحدة حقيقية فى جميع مراحل تاريخه، ولكننـى أكـاد أجـزم بـأن هذه الوحدة كادت ان تتحقق فى ظل السيادة العربية. ففـى ظـل الحضـارة العربيـة الإسلامية عمل اليهودى، والمسيحى جنبا الى جنب مع المسلم؛ بل ان بعض اليهـود والنصارى تبوأوا مراكز متقدمة فى سـلم الإدارة الإسـلامية؛ وهـو أمـر لم يتحقـق، وبكل تأكيد فىالحضارات السابقة للإسـلام. وتعـامل الصرافـين بعمـلات تضـرب بالفسطاط، والمهدية، وقرطبة، وبيزنطة، وجنوا، والبندقية لاحقا هو مظهر آخر من مظاهر ظاهرة التكامل التى تمتع بها هذا الحوض فى المرحلة قيـد الدراسـة؛ وإذا مـا أمعن المرء، مثلا، فى المحاصيل الزراعية وفى التقنيـات المصاحبـة التـى عمـل العـرب

عل نشرها في كامل المتوسط، لتبين له بان العرب، حتى وان عجزوا عن تحقيق وحدة هذا الحوض، فإنهم أكدوا تجانسه عاملين فيذات الوقت على نقل هذه العلاقة من مرحلة تعاونية الى مرحل تكاملية . والمتطلع في بعض المصادر المعاصرة للحروب الصليبية يخلص الى أنه وحتى في ظل هذه الظروف الخاصة لم تتوقف عمليات التنقل بين الضفتين المتنازعتين.

يقول ابن جبير"ومن أعجب ما يحدث ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون إعتراض عليهم... وإختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، وإختلاف المسلمين من دمشق الى مكة كذلك، وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية، وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والإتفاق بينهم والإعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب"[1].

هذا وتجدر الإشارة الى ان نص ابن جبير لم يشرالى أن تواصل العلاقات التجارية بين المسلمين والنصارى كان مقتصرا على المناطق المطلة على هذا الحوض، بل على العكس أفاد بان العمليات هذه تمت عن طريق البر، رابطة مناطق نائية عن سواحل هذا الحوض. غير ان رحلة ابن جبير أشارت وفي أماكن مختلفة الى شواهد تؤكد بدورها ظاهرة تعاون/تكامل ضفتي المتوسط. فسكان هذا الحوض، وكما تقترح ذلك وثائق الجنيزة، كانوا يفضلون في تنقلهم من منطقة الى أخرى في تلك المرحلة الطرق البحرية؛ وإختيار سكان هذا الحوض للسفن التي يستقلونها لم يحدد، في حقيقة الأمر، بهوية أصحابها العرقية أو الدينية، بل بتوفر السفينة وتوافق وجهتها ووجهة الراكب، وهذه حقيقة تؤكدها رحلة ابن جبير. يقول ابن جبير"فلما كان يوم الثلاثاء من اليوم الثاني يسر الله علينا في عبور البحر الى قصر مصمودة تيسيرا عجيبا والحمد لله. ونهضنا منه الى سبتة غدوة يوم الإربعاء الثامن والعشرين منه، وألفينا مركبا للروم الجنويين مقلعا الى الإسكندرية

1- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، 1980، 260.

بحول الله". [1] كما يذكر ابن جبير فى مكان آخر من رحلته بأنه إستقل فى طريق عودته سفينة جنوية، وأخرى ثرمية (ثرمة إحدى مدن صقلية) [2].

والمتصفح لرسائل الجنيزة، خاصة تلك المتعلقة بوسائل النقل المستخدمة فى العصر الوسيط يخلص الى ان هوية ملاك هذه السفن لم تقتصر، و كما أشار الى ذلك نص ابن جبير، على سكان جنوب إيطاليا. فلقد شاركت سفن الضفة الجنوبية بقسط وفير فى هذا النشاط. وأهمية وثائق الجنيزة التىننقل عنها هذه المعلومات انها أفادت، بالإضافة الى تأكيدها لمشاركة سفن الضفة الجنوبية فى هذا النشاط، فإنها تعرضت الى خلفية ملاكها. فملكية السفن العاملة فى المتوسط، يقول Goitein" تعود الى شخصيات لها علاقة بالحكومة: السلطان نفسه وأفراد العائلة الحاكمة، بما فى ذلك سيدات وحكام (يطلق عليهم لقب قائد بالمغرب، وأمير بالإندلس)؛ وقادة وعسكريون ووزراء (يطلق عليهم لقب حجاب بالأندلس) وقضاة أيضا. كما ان الحاجة للجيوش لحماية السفن يفسر، تقريبا، لماذا سيطر على هذا النشاط المربح أولئك الذين كان بمقدورهم توفير الحماية، أو الحصول عليها بسهولة". [3] وإشارة هذه الوثائق لخلفية ملا ك السفن فى الضفة الجنوبية لها دلالتها. فصاحب رأس المال، وكما يقال، جبان. لذلك فأن يستثمر وجهاء القوم أموالهم فى النقل البحرى من غير ان يحصلوا على أى ضمان هو أمر يدعو للدهشة. فالأمر الطبيعى إذا، وفى ظل علاقات تميزت فى جل مراحلها بالنزاع، هوان يلجأ الطرفان، على أقل تقدير، الى إبرام اتفاقيات تضمن عمليات التعاون بينهما وتنظمها. وهذا ما كان يتم فعليا؛ وإذا ماتجاهلت المصادر العربية هذه المعاهدات فذلك لا يعنى، بالتأكيد، غيابها؛ فجميعنا يعلم بأنه، وبحكم خلفية مؤرخى العصر الوسيط الدينية التى تستهجن هكذا معاهدات بين المسلمين وغير المسلمين، غض مؤرخو/فقهاء المسلمين الطرف عنها. وأيا ما كان سبب عزوف مصادرنا عن ذكر المعاهدات التى تضمنتها عديد الأعمال الغربية، فإن الأمر الأكيد هو ان ضفتى المتوسط، وطوال مرحلة العصر الوسيط، كانتا على إتصال

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، 8.
2- المصدر نفسه، 301-302.

3- S. D. Goitein. Mediterranean society. University of California Press, 1971, V, I, 309-310.

دائم. وهذا الإتصال الذى فسرفى عديد الأعمال تفاسير مغايرة، فإننى سعيت قدر جهدى الى تفسيره وفق فرضية قد تساهم فى إعادة النظر فى تاريخ هذا الحوض بصفة عامة، وفى تاريخ ضفته الجنوبية بصفة خاصة؛ والأهم من ذلك ان تدفع بباحثين آخرين من أبناء ضفة المتوسط الجنوبية لتجاوز القوالب التقليدية التى فرضتها علينا المدرسة الغربية.

كلمة أخيرة تتعلق بخلفية هذه الدراسات التى تضمنها هذا الكتيب وأماكن نشرها. فلقد كان من المقرر مثلا ان تنشر دراسة "الفتح الإسلامى لجزيرة مالطا فى مجلة"ألفباء"والتى تصدر عن مركز الفارابى بجامعة بالرمو، ولكن ولأسباب لا أرى داع لذكرها لم يتم نشرها فى تلك المجلة. علما بأن هذه الدراسة كتبت فى الأساس لمجلة تصدر عن مركز دراسات البحر الأبيض المتوسط. ولظروف يطول شرحها هى الأخرى لم تلق هذه الدراسة وللمرة الثانية طريقها للنشر. و بعد ان فقدت الأمل فى نشرها طلب منى أحد الأصدقاء نشرها فى مجلة كلية التربية، وبالفعل تم نشر هذه الدراسة وبعد ان مضى على تاريخ كتابتها أكثر من سبع سنوات. وحين قرأت هذه الدراسة فى "بروفتها"الأخيرة إكتشفت بأننى لم أراجع هذه الدراسة من قبل، وبأنها تعانى فى حقيقة الأمر من مشاكل عديدة لم يعد بالإمكان معالجتها. لذلك فإن القارئ لهذه الدراسة ضمن هذا العمل سوف يكتشف بأن الفارق بين النسختين كبير. وهذا لا يعنى بطبيعة الحال ان هذه النسخة خالية من المشاكل؛ فليس هذا ما أقصده بطبيعة الحال .

أما الدراسة الثانية "مبحث فى تاريخ الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية" فقد أعدت للمشاركة فى المؤتمر الذى عقد فى ولاية نيويورك/جامعة بنجمتن، وذلك بمناسبة مرور تسعمائة سنة على سقوط القدس فى أيدى الصليبيين. هذا وتجدر الإشارة الى اننى لم أتمكن من حضور هذا المؤتمر، إذ ان الحكومة الأمريكية رفضت منحى تأشيرة دخول بحجة ان الحكومة الليبية "الراعية" لعملية انتقالى من والى أمريكا لا تربطها بها علاقات دبلوماسية؛ لذلك أرسلت هذه الدراسة عن طريق البريد المسجل/المستعجل، وعلمت بأن الجامعة المعنية إستلمت النسخة مصحوبة برسالة وضحت فيها سبب تعذر مشاركتى. وقد مضى

على المؤتمر الآن (منتصف شهر ديسمبر 1999) أكثر من شهرين و لم أبلغ بما آلت اليه هذه الدراسة، لذلك رأيت نقلها الى اللغة العرية ونشرها ضمن هذا الكتيب.

ان حرصى على الكتابة فى مواضيع تخص تاريخ أمتنا وفق رؤية أكثر حيوية وخالية من التفاسير الجامدة/التقليدية، هى التى دفعتنى هذه المرة للكتابة عن ضفة المتوسط الجنوبية من خلال جزيرة جربة. فبعد ان قمت بالكتابة فى موضوعين يعالجان بالدرجة الأولى ضفة المتوسط الشمالية وبعض جزرها وفق فرضية التجاذب والتبعية، قررت هذه المرة، ومن خلال هذه الدراسة"جزيرة جربة: قراءة مغايرة للعلاقات الطرابلسية التونسية فى العصر الوسيط" أن أوضح الفكرة البسيطة التالية، وهى انه وعلى الرغم من تواضع إمكانيات هذه الجزيرة الإقتصادية ومن تواضع إمكانيات محيطها فإنها تمكنت، وبفضل تطور علاقة منطقة طرابلس-الجنوب التونسى من مرحلة التعاون الى مرحلة التكامل، من ان تلعب أدوارا لا تقل أهمية عن الأدوار المتنوعة التى لعبتها جزر ضفة المتوسط الشمالية. علما بأن هذه الدراسة التى أعدت خصيصا من أجل إلقاء المزيد من الضوء على أهمية جزر المتوسط الجنوبية، ودورها فى تعزيز تكامل هذه الضفة، وربما وحدتها، لم تنشر من قبل.

بالإضافة للملاحظات السريعة هذه والتى رمت من خلالها توضيح خلفية هذه الدراسات، رأيت، ولمزيد من الإيضاح، إضافة ملاحظة أخيرة؛ فهذه الأعمال والتى أعدت لأسباب وظروف مختلفة، كانت قد إرتكزت بالدرجة الأولى على فرضية التجاذب/التبعية، و بدرجة أقل علىفرضيةالمراكز/الأطراف. والإعتماد فى هذه الدراسات على هاتين الفرضيتين، فضلا عن ندرة الشواهد المتعلقة بضفة المتوسط الجنوبية، قد يفسر جزئيا اللجوء الى إستخدام شواهد محددة فى أكثر من دراسة، ولأغراض تكاد تكون واحدة. وهذا القصورله، فى إعتقادى، ما يبرره. فبالإضافة الى عامل ندرة المعلومات المنوه به آنفا، فإننى أزعم بأن تجاهل العديد من الباحثين العرب لدراسة تاريخ المتوسط من منطلق شمولى، أو لضفته الجنوبية من منطلق الفرضية المتبناة فى هذا العمل، ضاعف من صعوبة البحث فى هذا الموضوع، وأصبح بالتالى من الضرورى على من يسعى الى العمل على تأويل بعض مراحله، الإسترشاد بشواهد معينة/متكررة.

الفصل الأول

الفصل الأول:

ضفتا المتوسطيين
التجاذب والتبعية

الفتح الاسلامى لجزيرة مالطا

ان دارسى تاريخ علاقات الدول المطلة على ضفتى المتوسط كثيرا ما تشيعوا -كل حسب هويته/خلفيته- الى تراث أو أهمية هذه الضفة أو تلك من منطلق تتحكم فيه الافكار المسبقة. والاعمال العربية، على ندرتها، والمعتمدة على المصادر الاسلامية، ترى غير ما تراه الاعمال التى تعتمد على الاعمال الغربية. وهذه الاخيرة والتىدرست تاريخ هذه العلاقات على ضوء"الاحكام"التى تضمنتها النصوص الكلاسيكية، هى غير الاعمال التى تستمد معلوماتها وشرعيتها من مصادر متنوعة تكون العربية من بينها.

ان تنوع المصادر واختلاف وجهات النظر التى احتضنتها الاعمال الغربية -على وجه الخصوص- لم يكن له الفضل فى اثراء هذا الموضوع فحسب، بل وفى ظهور تفاسير أصبح من العسير على دارسىهذه العلاقات تجاهلها. فاطروحة بيرين مثلا تقول بان التوسع الاسلامى، لما قضى على وحدة المتوسط وقضى على التجارة، أعلن عن ظهور العصر الوسيط. والنتيجة يسترسل بيرين أن شارلمان لا يتصور بغير النبى محمد ﷺ، وان حضارة العصور القديمة توصلت الى ادماج الجرمان، ولعلها استمرت على درب التطور لولا التوسع الاسلامى. ان هذه الاطروحة أصبحت الفكرة المهيمنة "leitmotiv "فى الثلاثينات من القرن العشرين لمن يدرس علاقات دول المتوسط فى العصر الوسيط.

وبتزايد عدد الاعمال الغربية خاصة، والمتعلقة بهذا الموضوع، ظهر تيار لم ينته عند انتقاد أطروحة "Pirne" وانتقاصها، نذكر منهم D,Donnet R. S. Lope z, D.، بل نرى بعضهم، Lombard .M، على وجه الخصوص يعمل على اظهار تكامل هذا الحوض واستمرار تماسكه ووحدته فى ظل الحضارة العربية الاسلامية.

والحقيقة التى لا يختلف حولها اثنان هى ان النظريات التى تناولت كينونة حوض المتوسط بالدراسة كان مصدرها غير عربى. ففى حين أبرزت الأعمال العربية الأولى أهمية الفتوحات البرية من غير ان تقلل من اهمية الأعمال البحرية، اكتفت الأعمال العربية الحديثة بابراز دور حصون المتوسط ورباطاته فى الجهاد.

ان اهمال الاعمال العربية الاولى والحديثة، على السواء، لتاريخ البحر الابيض المتوسط، ولا أقول للنشاط البحرى، كان قد ترك المجال مرة أخرى للأعمال الغربية، التى ماانفكت تؤكد أهمية الدور الذى لعبته الدول /الحضارات المطلة على ضفاف المتوسط الشمالية، وعلى هامشية وتبعية"حضارات" ضفافه الجنوبية. واهمال الباحثين العرب المحدثين لدراسة البحرالابيض المتوسط كان قد مكن فئات أخرى (أقليات) لعب أسلافها دورا ثانويا فى حضارة العرب والاسلام من ان تبرز مساهمتهم فى تنمية اقتصاد هذا الحوض وتنوع نشاطاته. "فوحدة" المتوسط التى حافظ عليها العرب فى القرون الوسطى على المستوى العلوى/العمودى، يزعم بعض الباحثين اليهود (S. D Goitein) بان استمرارها على المستوى العملى/الافقى يعود الفضل فيه الى نشاط الاقليات اليهودية المقيمة على ضفتى هذا الحوض.

وعلى الرغم من ان بعض الباحثين العرب كانوا قد تنبهوا الى علاقة التجاذب التى كانت تدفع دوما بالقوة المسيطرة على هذه الضفة أو تلك بضرورة السيطرة على الضفة المقابلة، الا انها حصرت هذه العملية فى علاقة هذه الجزيرة (صقلية مثلا) بهذا القطر (تونس)، دون ان تعمل على دراسة هذه الظاهرة (ظاهرة التجاذب) من منطلق شمولى. كما غاب عن أصحاب هذه الاعمال الواقعين تحت سحر التفسير القطرى للفتح الاسلامى، اظهار ادراك القيادة العربية بكينونة هذا المجال الحيوى التى دفعتهم الى السعى للسيطرة على أهم مراكزه الحيوية منذ القرن الاول للاسلام.

لذلك فهذه الدراسة، حتى وان كانت تبحث فى موضوع فتح المسلمين لجزيرة مالطا، الاانها تدرس هذه الظاهرة من خلال استراتيجية الفتح الاسلامى العامة من ناحية، وعلاقة هذه الاستراتيجية بالفتح البحرى فى الحوض الغربى للمتوسط، من ناحية أخرى. وقبل الخوض فى استراتيجية الفتح الاسلامى، فى شموليته، سيتم، وفى ايجاز، عرض بعض المعطيات المتعلقة بحوض البحر الابيض المتوسط، كما سيتم، كلما تطلب سياق البحث، التطرق وباختصار الىبعض جزره (صقلية، وقبرص، ورودس) والتى كانت بمثابة المحطات/المراحل التى لا يتم من خلالها مهاجمة الضفة المقابلة فحسب، بل ومحاولة السيطرة عليها. كما ستقدم هذه الدراسة بعض الشواهد التى تؤكد وعى القيادة العربيةالمسيطرة على سواحل

المتوسط الجنوبية بكينونـة هـذا الحـوض، وبأهميـة جـزره فيالسيطرة علـى ضفتـى الحوض التى اكتفت المصادر الأولى بالتلميح اليها.

فى البداية، يقول Bradford، ان البحر الابيض المتوسط الذى تحـده أوروبـا مـن الشمال وافريقيـا مـن الجنـوب، واسـيا مـن الشـرق يحتـل خندقـا عميقـا بـين هـذه القارات. كما يضيف بأن هذا الخندق كـان منقسـما، علـى الاقـل، الى حوضـين، الحوض الغربى، والحوض الشرقى. فالحوض الغربى الذى يغطى المساحة الممتدة مـا بين جبل طارق وبين صقلية، ينفصل عن الحوض الشرقى بسلسلة مـن الارتفاعـات المتطاولة فى قاع البحر والتـى تقـوم علـى بعضهـا جـزر مالطـا. ان هـذه السلسـلة كانت فى القديم تصل أوروبا بافريقيا. ان هذا الحوض، يضيـف (Bradford) كـان يفصله عن المحيط الاطلسى جبل طارق المتصل عندئذ بسبتة. وفى مرحلة موغلة فى القدم تحطم الجسر الذى يصل اسبانيا بافريقيا، وغمرت مياه المحيط الحوضين الغربى والشرقى مكونة ما اصطلح علىتسميته فيما بعد بالبحر الابيض المتوسط[1].

ان هذا الوصف، شبه الأسطورى، لتكـون البحـار هـى مـن المعلومـات التـى لا تستند كثيرا الى وثـائق، أوأيـة معطيـات أثريـة، ولكنهـا تعتمـد كثـيرا علـى ذاكـرة **الانسان** الغربى الذى يريد ان يجعل من الرجل الغربـى رجـلا "سـوبرمانيا" يختطـف **النار** ويسرقها من الالهة "Promethos" تارة، "ويخلق" البحار تارة أخـرى[2]. ان هـذا **البعد** البطولىالذى لا تزال الأعمال الغربيـة المعـاصرة تدعمـه (وهـى محققـة، اذ انهـا تدفع بأبنائها للنهل من تراث يعتمد فيه الانسان كثيرا علـى قدراتـه الذاتيـة) يخـرج هذا الموضوع عن دائرة اهتمام المؤرخ الذى ينطلق فى العـادة مـن معطيـات ماديـة تذلل له الصعاب وتنير له السبيل، وتكون المادة التى يعول عليها فـى بنـاء التفاسـير والتـأويلات. مع ذلـك فـان هـذا البعـد الأسـطورى لا يخلـو كليـة مـن الحقيقــة.

1-E. Bradford. Mediterranean portrait of a sea. Tutor publications, Malta, 1989, 28.

2- ان هذا الحوض الذى أنعمت به الطبيعة على الدول المطلة عليه كان وكما تقترح الأسطورة الاغريقية من عمل البطـل الأسـطورى الخـارق هرقـل الـذى عـزل القـارتين عـن بعضهـما البعض، وبعد ان فصل القارتين وضع على كل ضفة صخرة، فكانت صخـرة جبـل طـارق فى الشمال، وصخرة سبته فى الجنوب. انظر:

E. Bradford,Mediterranean portrait,28-29.

فالأبحاث المتعلقة بالجيولوجيات، وبما قبل التاريخ تذهب الى الاعتقاد بأن بلاد المغرب كانت متصلة بأسبانيا فى العصر الجليدى وفى العصر الحجرى القديم (olethicePal).

كما تشير هذه الأبحاث الى ان البقايا العظمية الانسانية القديمة التى عثروا عليها فى الكهوف والمغارات الساحلية فى هذه المنطقة مثل مغارة (Calpe) بجبل طارق، ومغارة العالية وأشقر بجوار طنجة، ودار السلطان جنوب الرباط، والخنزيرة جنوب الجديدة وغيرها، تفيد بأن الانسان القديم كان قد اتخذ"الكهوف والمغارات كمناطق يأوى اليها خلال عصور ما قبل التاريخ، وعلى هذا الأساس يفترض بعض العلماء أن عبور الانسان العاقل (Homo Sapiens) الى اوروبا كان من هذه المنطقة أثناء تراكم الجليد فى منطقة المضيق، وليس من منطقة جبال القوقاز فحسب كما هو معروف"[1]. وبغض النظرعن صحة هذه الآراء، أوعدم صحتها فيما يتعلق سواء بتكون هذا البحر، أو بصلة أسبانيا بالمغرب، فان الأمر الأكيد هو أن ضفتى المتوسط، ومنذ القدم كانتا تتطلعان الى بعضهما البعض مدفوعتين بتجانسهما الطبيعى والمناخى.

فهذا الحوض الذى كانت تنبت على ضفتيه أشجار الكروم والزيتون والنخيل والرمان، كان محاصرا بقوتين طبيعيتين تعملان بالتناوب: الصحراء والمحيط الأطلسى. فمن الصحراء تهب الرياح الجافة التى تجعل السماء أكثر وضوحا وأكثر زرقة، أما المحيط الأطلسى فانه حين يتوقف عن ارسال السحب والأمطار، فهو لا ينفك يرسل تيارات هوائية مشبعة بالرطوبة[2]. وتجانس ضفتى المتوسط مناخيا جعل الفارق فى درجة الحرارة ضئيلا لا يكاد يذكر. فعلى الرغم من أن عرض الحوض الغربى للمتوسط يبلغ أقصاه عند نقطتى مدينة مرسيليا فى الشمال ومدينة الجزائر فى الجنوب (740كم) فان متوسط الفارق فى درجة الحرارة بين هاتين المدينتين فى شهر يناير لا يتجاوز الأربع درجات.[3] وهذا التشابه، يقول (Braudel) جعل

1- العبادى، أحمد مختار. فى تاريخ المغرب والاندلس. بيروت، دار النهضة العربية، 1981، 22.
2-F. Braudel. The Mediterranean and the Mediterranean world in the age of PhilipII. London,Harper colophon books,1976,vol. I,231-232.
3- المرجع نفسه، 235.

الأجزاء الجنوبية من أسبانيا وفرنسا وايطاليا أكثر ارتباطا وأوثق صلة بالسواحل الافريقية من ارتباطها باوروبا.[1] كما أن هذا التجانس الذى ساهم، والى حد كبير فى وحدة منتجاته الزراعية، كان من بين الأسباب التى دفعت بأسياده للمتاجرة مع المناطق التى تقع خارج هذه الخارطة المناخية.

وما دمنا نتحدث عن المناخ ودوره فى تجانس ضفتى المتوسط يجدر بنا أن نشير الى عامل مناخى كانت له أهميته ليس فى تحديد عملية التنقل بحرا فحسب، بل وفى تحديد مواقيت التنقل. فالابحار فى المتوسط كان مقيدا بعائقين رئيسيين: اتجاه الرياح، والتيارات البحرية. ففى دراسة نشرت مؤخرا بمجلة دراسات ليبية (byan StudiesiL) يبين (Fulford) كيف كان عامل الرياح فى القديم يجبر السفن التجارية خاصة على السير شمالا-جنوبا، أو العكس. وعلى الرغم من أن دراسته تهتم أساسا بتجارة برقة وطرابلس المتوسطية فى القديم، فان استنتاجاته المعتمدة على المخلفات الأثرية (الأمفورة خاصة) تؤكد بأن اتجاه الرياح طوال موسم الابحار (أبريل-نوفمبر) يعد من أهم العوامل التى فرضت نسق التنقل شمال-جنوب. ودون الدخول فى تفاصيل هذه الدراسة، التى أراها قيمة، فان النتيجة التى توصل اليها صاحبها هى ان نسبة الابحار شرق/غرب كانت، نتيجة لوجهة الرياح من ناحية، ولرداءة موانئ المتوسط الطبيعية من ناحية أخرى، أقل بكثير من نسبة الابحار شمال/جنوب.[2] ان هذه النتيجة المستخلصة، وكما سبق وان ذكرت، من مخلفات أثرية (الامفورة والصخور والنقود والخزف) تؤكد بدورها على أن تجاذب ضفتى المتوسط وربما تجانسهما الطبيعى كان حقيقة أدركتها فى القديم شعوب المتوسط.

والجدير بالذكر أن تجانس المناطق المطلة على هذا الحوض واندماجها مع اقتصاد البحر الأبيض المتوسط منذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد[3]، كانت قد دفعت

1- المرجع نفسه، 235.

2- M. G. Fulford,"To east and west: the Mediterranean trade of Cyrenaica and Tripolitania in antiquity"in Libyan Studies,20,1989,169-191.

3- J. Devisse"routes de commerce et echanges en Afrique occidentale en relation avec la Mediterranee. un essai sur le commerce africain medieval du XI au XVI siecle" in revue d'histoire economique et sociale. no,1,1979,49.

بالقوى المنتصبة على احدى الضفتين بضرورة الانتقال الى الضفة المقابلة بقصد التوغل داخل البلاد المطلة على الحوض، وضم أهم خيراتها وأثمنها الى بقية ممتلكاتها. هذا وان اقتصرت ملاحظات الاستاذ محمد الطالبى على علاقات صقلية بتونس، ولكننى رأيت أن أستعين بها اذ أن ملاحظاته تصدق أيضا على علاقة التجاذب التى تحكم ضفتى الحوض بصفة عامة. والحقيقة أنه ما كان بامكان الأستاذ الطالبى أن يتطرق الى هذه العلاقة فى شموليتها وهو الذى لا يرى من تاريخ افريقية، والذى يشمل تاريخ الأجزاء الغربية من الأراضى الليبية وتونس ونوميديا، غير تاريخ موطنه تونس!لذلك فملاحظاته التى أنقلها، والمقتصرة، وكما سبقت الاشارة، على صقلية وتونس، بالامكان الاسترشاد بها لتوضيح طبيعة علاقة الضفتين فى القديم. فالطالبى يذكر فى البداية أن أهمية جزيرة صقلية لم تغب"عن بحارة فطنين كالفينيقيين، وورثتهم من القرطاجنيين. ومن هنا نشأ خصام عنيف سببه التنافس بين سيطرتين (سيطرة روما وسيطرة قرطاجة)..... وكانت صقلية مسرحا وثمنا لهذا التنافس... وتعددت الحملات الى حد أن صار التأريخ لها مملا غيرثابت، وأرهقت قوى روما فغادروا نهائيا صقلية.. والتحدى الذى تخلى عنه الروم مؤقتا، عملت به روما، فبدأ مد الحروب البونيقية (264، 241، 218، 201، 146قبل الميلاد) وجزرها فكانت صقلية الرهان والمقدمة لهاقبل أن تصير قاعدة للقوة الرومانية المحدقة. كانت الجاذبية المتبادلة قد وصلت الى حد شعر معه كل من انتصب باحدى الضفتين باغراء جامح الى التقدم خطوة أخرى"[1].

واذا ما علمنا بأن قوى أخرى كانت قد سبقت القرطاجنيين فى التطلع الى صقلية، مثلا، يكون حصر هذا الموضوع فى علاقات ثنائية بين هذه المنطقة أو تلك غير كفيل بازالة الغموض الذى لا يزال يشوب علاقات الساحل الشمالى للمتوسط بجنوبه. فالشواهد المكتشفة أخيرا تفيد بأن جزيرة صقلية كانت وثيقة الصلة، فى العصر البرونزى، بشعوب بحر ايجه.[2] كما تجدر الاشارة الى أن تجار ومغامرى بحر ايجه كانوا على صلة بمرافئ مصر. وعلى الرغم من أن المصادر لا تشير صراحة الى أن هناك تواجدا "فرعونيا" فى بحر ايجه، أو فى غربى المتوسط،

1- الطالبى، محمد. الدولة الأغلبية، 419.

2-J. Hure. Histoire de la Sicile. P. U. F collection Que Sais-je? Paris,1975,11-12.

جزيرة صقلية مثلا، الا أن وسم السفن الفينيقية المتجهة نحو صقلية ومالطا بنفس الرسوم/الشعارات التى كانت تحملها السفن المصرية، قد يستنتج منه أن التوجه الفينيقى نحو جزر غربى المتوسط قد يكون بدوره استمرارا لأعمال الاسطول الفرعونى فى المنطقة. وما يرجح هذا المقترح هو أن انتقال السفن من الحوض الشرقى الى الحوض الغربى كان يتم من خلال جزيرة قبرص التى احتلتها القوى المصرية والسورية ولفترات ليست بالقصيرة.

بالاضافة الى أهمية جزيرة قبرص فى تواصل بلاد الحوض الشرقى للمتوسط، فانه من المفيد التذكير بصلة مصر الوثيقة، عبر العصور، بالسواحل السورية. فالمتمعن فى طبيعة العلاقة بينهما يخلص الى أن وحدة الحوض الشرقى كثيرا ما تتحقق من خلال تنسيق القوى المنتصبة على سواحل مصر وبلاد الشام. وبصرف النظر عن دور هذه القوى فى تحقيق وحدة هذا الحوض، فان الامر الأكيد هو أن بلاد الشام كانت تربطها بمصر علاقات متميزة. فالآثار تشير وبوضوح الى أن عمليات التبادل التجارى بين مصر ومدن الشام البحرية (صيدا وصور) كانت قد استمرت من الألف الثالث قبل الميلاد وحتى"عهد الاضمحلال الذى أعقب الأسرة السادسة المصرية حيث جاء فى احدى النصوص التى تنتمى لهذا العصر، أن خشب الأرز لم يعد يأتى لمصر"[1]؛ وحيث ان مصر كانت ولا تزال بطبيعة الحال تطل على حوضين يعدان من أهم أحواض العالم استراتيجيا وتجاريا، دون أن ننسى امكانيات نهر النيل الملاحية التى مكنت مصر من التوغل داخل افريقيا، لا نكون قد جانبنا الحقيقة كثيرا اذا ما اعتقدنا بأن المصريين كانوا أقدم عهدا بالمتوسط، وأن نشاط الفينيقيين البحرى كان قد تأثر، ضمن أشياء أخرى، بنشاط المصريين البحرى/التجارى.

ان علاقة مصر بسواحل سوريا لم تكن العلاقة الوحيدة التى ميزت تاريخ مدن سوريا الساحلية فى القديم. فهذه المدن كانت، بحكم موقعها، تتأثر هى الأخرى سلبا وايجابا بما يدور فى المدن المطلة على الحوض الشرقى للمتوسط، وفى بعض جزره. فالمصادر تذكر ان المدن الفينيقية كانت وثيقة الصلة بجزيرة قبرص مثلا. فحين قررت"اليسا" مؤسسة قرطاجة الهروب من مدينة صور بعد أن قام أخوها

1- عصفور، محمد أبوالمحاسن. المدن الفينيقية. بيروت، دار النهضة العربية، 1981، 31.

بقتل زوجها، اتجهت الى شمال افريقيا عن طريق قبرص.[1] كما أن علاقة التجاذب بين سواحل صور وجزيرة قبرص جعلت المسيطر على سواحل سوريا يسعى الى مد نفوذه الى الجزر القريبة منها. فحينا تولى"شلمناصر الخامس عرش اشور أراد أن يغزو جزيرة قبرص... وحينما تولى سرجون الثاني عرش اشور 721-705ق. م استطاع ان يستولى على قبرص، وأن يحصل منها على الجزية فى مناسبات عدة"[2]. كما أنه بامكاننا الاستشهاد فى العصر الاسلامى بموقف معاوية بن ابى سفيان. فاصرار هذا الاخير على ضرورة فتح قبرص هو خير دليل على أهمية عامل التجاذب واستمراريته فى رسم سياسة الدول المطلة على هذا الحوض[3].

كما أن علاقة التجاذب هذه لم تقتصر على السواحل الشامية فقط، وبعض جزرالمتوسط الشرقية، فما يستشف من بعض المصادر يفيد بأنه، وما أن سيطر الإغريق على بعض جزر الحوض الشرقى للمتوسط حتى تطلعوا الى سواحل الحوض الجنوبية. ودون البحث فى الأسباب التى دفعت الإغريق بالتوجه نحو السواحل الشرقية للأراضى الليبية، فإن إحتلال الإغريق لهذه المنطقة، وتأسيسهم مدينة قورينا، يؤكد بما لا يدع مجالا للشك على أن المسيطر على إحدى الضفتين كان يتطلع وبإستمرار الى الضفة المقابلة. إلا أن هذه الحقيقة التى أكدتها، بالدرجة الأولى، الأعمال الغربية، فإنها لم تهتم بدور السواحل الجنوبية، وأقتصر اهتمامها على المبادرة الشمالية/الأوربية. لذلك فالدعوة من خلال هذه الملاحظة السريعة، هى ان يعاد النظر فى علاقة ضفتى الحوض من زاوية تولى السواحل الجنوبية نفس الأهمية التى سبق وأن منحت للسواحل الشمالية.

فمساوئ اهمال الباحثين العرب المحدثين لدراسة المتوسط فى شموليته أكد من ناحية عظمة حضارات سواحل المتوسط الشمالية، وأممه التى ماانفكت تؤكدها أعمال مدارس الغرب التاريخية، ودونية حضارات سواحله الجنوبية، وأممه، من ناحية أخرى. إن هذه الرؤية بمساوئها الجلية لا يتردد العديد من الباحثين العرب

1- المرجع نفسه، 41.

2- المرجع نفسه، 43.

3- حول اصرار معاوية على ضرورة ركوب البحر الى قبرص، أنظر: البلاذرى، أبو الحسن، فتوح البلدان، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1983، 153-154.

من تبنيها. فتأثر الأستاذ الطالبى مثلا بالتفسير القطرى، الذى زكته مدرسة الإستشراق الفرنسية، جعلته لا ينتهى عند تضييق نطاق البحث، بل يقوم بترديد العديد من الصور السلبية التى تؤكد بدورها تفوق الضفة الشمالية، وتبعية الضفة الجنوبية. لذلك فظاهرة التجاذب التى كانت تحكم علاقة الطرفين طوعتها الأعمال الغربية، ومن نحى نحوها للإشادة بالمبادرات الأوربية فقط . فحالما"انتصر جنسريق بقرطاجنة سنة 439 جهز اسطولا... وخرج لمحاصرة بالرمو ونهب سرقوسة، وانتصب الوندال بافريقية سنة 468، وانتهوا الى الإستيلاء على الجزيرة، ودخلوا فى نزاع مع أبناء عمومتهم من الأستروغوط المقيمين بايطاليا.... وقدم بليزار أخيرا وأعاد افريقية الى الامبراطورية 534، وصقلية"[1] . وكان على الأستاذ الطالبى، وهو الذى يحصر تاريخ المغرب العربى فى موطنه تونس، أن يشير الى مساعى هانيبال/القرطاجنى ليس فى السيطرة على جزيرة صقلية فحسب، بل وعلى جل ممتلكات الدولة الرومانية. فالحروب البونيقية التى أشار اليها الأستاذ الطالبى لم يكن هدفها السيطرة على هذه الجزيرة أو تلك، بل كانت ترمى الى السيطرة على الحوض بأكمله. فالمؤرخ، Polybius، يقول بأن"حروب هانيبال كانت أكثر من مجرد جولة ثانية ضد قرطاج...... بل كانت مرحلة حاسمة فى نهوض روما وسيطرتها على عالم المتوسط"[2].

وما يصدق على الأستاذ الطالبى ينسحب فى حقيقة الأمر على العديد من الباحثين الذين درسوا تاريخ جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقية. فالدكتور ابراهيم احمد العدوى، مؤلف"قوات البحرية العربية فى مياه المتوسط" لم يتمكن، بحكم تأثره بالمنهجية الإقليمية، من رؤية ظاهرة التجاذب فى شموليتها. فعمله المتعلق بالبحر المتوسط تمحور حول النشاط البحرى العربى فى الأجزاء الشرقية لهذا الحوض؛ وعلى الرغم من أنه لمح، فى سياق حديثه عن الفتح الإسلامى لجزيرتى قبرص وكريت لظاهرة التجاذب التى كانت تحكم علاقة هذه الجزر بالشواطئ/السواحل التى تقع قبالتها، ولكنه لم يشر الى علاقة التجاذب هذه أثناء

1- الطالبى، محمد. الدولة الأغلبية، 419.

2- نقلا عن J. F. Lazenby. Hanibal' s wars England,1978,233.

استعراضه عمليات فتح المسلمين لجزر المتوسط الغربية[1]. كما يذكرفى دراسة أخرى ادراك القيادة العربية بأهمية"جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقى فى الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، ولا سيما جزيرة اقريطش، عمود هذه الجزر الفقرى"[2]دون أن يلمح للحقيقة التاريخية التالية: وهى ان جزيرة اقريطش مثلا لا تمثل مركزا تدورحوله الأطراف، بل كانت دوما تابعة لمن يسيطر على هذه الضفة أو تلك من البحر الأبيض المتوسط. ففى العصر البطلمى مثلا، كانت جزيرة اقريطش تابعة لمصر؛ وكذلك الأمر فى العصرين الرومانى/البيزنطى. كما ان سيطرة أسياد مصر على هذه الجزيرة لا تمثل غاية فى حد ذاتها، فالجزر المتناثرة فى هذا الحوض كانت تستغل دوما كمراحل تتوقف عندها القوات المتجهة من الشمال الى الجنوب، أو العكس.

كما يمكننا ان نستشهد أيضا بعمل الدكتور حسين مؤنس "تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط" الذى يتجاهل بدوره ظاهرة شمولية هذا الحوض؛ والشمولية التى أعنيها ليست بالضرورة اعتناق مفهوم وحدة هذا الحوض، فما اقصده تحديدا، هو ان هذا البحر يمثل اقليما بمفرده يتوجب على الباحث التعامل معه على هذا الأساس. واللافت للنظر ان الدكتور حسين والذى يتجاهل شمولية هذا الحوض، يعتنق تفاسير الغرب المغرضة، سواء تلك المتضمنة فى اطروحة وحدة المتوسط التى يتزعمها (بيرين) أوتلك المتضمنة فى أعمالهم المتعلقة بمؤسسات المسلمين[3]. فسيادة المسلمين، حسب زعم (بيرين) على البحر الأبيض المتوسط

1- العدوى، ابراهيم أحمد، قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط. الفجالة، مكتبة نهضة مصر، بدون تاريخ.

2- العدوى، ابراهيم أحمد"اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى"فى المجلة التاريخية المصرية. المجلد الثالث، العدد الثانى، اكتوبر، 1950، 56.

3- فكفاية بنى أمية مثلا "فى الأمور الإدارية نتجت عن صلاتهم الطويلة بالروم، وترددهم على بلادهم"مضيفا فى مكان آخر ان المسجد، نقلا عن فلهاوزن، كان"فورم الإسلام"Forum"؛ ففى المسجد، يقول مؤنس نقلا هذه المرة عن وستنغلد كان المسلمون"يتداولون فى الأمور ويقررون رأيهم فيه كما كان الرومان يفعلون فى الفورم"والأراء التى تؤكد وقوع مؤنس فى شراك تفاسير الغرب المغرضة هى كثيرة، وعرضها بأكملها يضيق بها مجال البحث، فلمزيد من الشواهد يمكن للقارئ الرجوع الى عمله تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط. الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1991.

كانت قد قلبت الأمور رأسا على عقب. واذا ما اكتفى (بيرين) بالتأكيد على دور المسلمين السلبى فى هذا الحوض، فإن المؤرخ أدولف شاوبة يصف مرحلة السيادة العربية للمتوسط بأنها مرحلة الشدة، أو المحنة العربية، والأدهى من ذلك هو ان الأستاذ مؤنس لا يكتفى بترديد هذه المعلومات المغرضة، بل نراه يكتفى بتسجيل اعتراضات المؤرخين الألمان على آراء (بيرين)[1].

وفى سياق حديث مؤنس عن فتح المسلمين لجزر المتوسط يزعم بأن قيام المسلمين بهذا العمل كان اما بدافع حماية الشواطئ الإسلامية، واما بدافع التخلص من متاعب الممالك الإسلامية الداخلية. فمحاولات المسلمين فتح جزيرة صقلية "كانت كلها سرايا سريعة لا ترمى الى فتح الجزيرة، وكان من الممكن ان يستمر الأمر على ذلك المنوال لو لم تجر الأحوال فى دولة الأغالبة على نحو جعل زيادة الله بن الأغلب يرى فى فتح صقلية مخلصا له من متاعب داخلية كثيرة"[2]. اما الدكتور وديع فتحى عبد الله فإنه يقترح العجب! اذ حتى أشد المستشرقين تعصبا لا يذكرون مثلا بأن صقلية، أو جنوب ايطاليا كانتا فى وضع يسمح لهما بأن يلعبا أى دور حضارى فى تلك المرحلة، الا ان الدكتور وديع يذكر بانه "من الضرورى الإشارة الى العوامل التى جعلت صقلية بالذات أحد مواقع الصراع البيزنطى الإسلامى والتى تنحصر فيما يلى: أولا أهميتها العسكرية ... ثانيا أهميتها الإقتصادية..... ثالثا أهميتها الحضارية اذ أنه عن طريقها كان من السهل الإتصال بالشعوب ذات الحضارة على شواطئ البحر المتوسط منذ القدم، حتى ان صقلية

1- مؤنس، المرجع السابق، 136؛ والحقيقة التى تجاهلها مؤنس هى ان (بيرين) كان قد تنبه، انطلاقا من الفهم الشمولى لهذا المجال الحيوى، الى الحقيقة التاريخية التالية، وهى تفكك وحدة المتوسط. ولكن (بيرين)، على حد تعبير (لويس) لم يوفق فى اختيار المجرم الحقيقى. فالعرب، يسترسل (لويس) لم يتسببوا فى تحطيم وحدة المتوسط القديمة، ان هذا العمل كان من فعل بيزنطة. ففى صراعها القاتل مع الأمويين استغلت بيزنطة وسائل بحرية واقتصادية لتحقق النصر فى الفترة الممتدة ما بين سنة715 الى سنة752؛ وقيام بيزنطة بهذا العمل يقول (لويس) كان سببا مباشرا فى القضاء على النمط الإقتصادى القديم للمتوسط. لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة بالذات انظر:

A. R. Lewis, Naval power and trade in the Mediterranean. A D 500-1100. Princeton, New Jersy, Princeton university press, 1951.

2- مؤنس، تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط، 72.

وجنوب ايطاليا كانا يعرفان فى العصر الكلاسيكى باسم "بلاد الإغريق العظمى"[1] !!!!

وملاحظاتى السريعة هذه لا تقتصر فى حقيقة الأمر على الدارسين الذين تقع أقطارهم قبالة أشهر جزر المتوسط التى فتحها المسلمون، بل تشمل باحثين آخرين لم تتمتع أقطارهم بهذ الخاصية. فما لوحظ على هؤلاء أيضا هو حصرهم عملية التجاذب بين أشهر جزر المتوسط والأقطار القريبة منها. فالأستاذ المدنى على سبيل المثال لا يولى حوض المتوسط فى شموليته أية أهمية، علما بأنه هو الآخر يلمح الى عملية التجاذب التى كانت تحكم علاقات جزيرة صقلية بالسواحل التونسية. ففى حديثه عن قرطاجة، يذكر الأستاذ المدنى بأن الأخيرة كانت قد مدت أبصارها "الشرهة نحو جزيرة صقلية ورامت الإستحواذ عليها، اما تمهيدا لوثبة أخرى من ورائها نحو القارة الأوربية، واما اتقاءا لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية، وقد كانت قرطاجة قد احتلت قبل ذلك جزيرتى سردينيا وكرسكا"[2].

هذا وتجدر الإشارة الى ان بحاثا آخرين من امثال الأستاذ بازامة، والدكتور أحمد مختار العبادى، والدكتور سيد عبدالعزيز سالم، وبحكم تأثرهم بمدارس الغرب من ناحية، وبحكم تبنيهم التفاسير القطرية من ناحية ثانية، اقتصرت دراساتهم على هذه الجزيرة أو تلك، وعلى علاقتهما بهذه الضفة أو تلك. لذلك لا أرى داعيا للوقوف عندها اذ أنها، وفى مجملها، تؤكد غياب ظاهرة التجاذب فى شموليتها، وسأنتقل للحديث عن الفتح الإسلامى لجزيرة مالطا من خلال ظاهرة الفتح الإسلامى بصفة عامة. فدراسة الفتح الإسلامى لجزر المتوسط بمعزل عن استراتيجية الفتح الإسلامى فى شموليته، هى من الإسباب التىمنعت المهتمين بتاريخ العرب فى عصوره الوسطى من رؤية ظاهرة التجاذب التى تحكم علاقة ضفتى المتوسط.

1- عبدالله، وديع فتحى، بيزنطة ومسلمو جنوب إيطاليا وصقلية فى عهد باسيل الأول المقدونى (867-886/253-273هـ)، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، 1991، 13-14

2- المدنى، أحمد توفيق، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، 20.

فالفتح الإسلامى للبلاد المطلة على حوض المتوسط، كما بينت ذلك فى غيرهذا المكان[1] ، كان يخضع لإستراتيجية قوامهاالتقرب من سكان المنطقة، ومحاربة ممثلى النفوذ البيزنطى. وحيث ان تواجد الأخير كان محصورا فى المدن المطلة على المتوسط وجزره، كان على القيادة العربية ومنذ عهد الخلافة الراشدة ان تعد العدة لتواجه القوى البيزنطية برا وبحرا. وعلى الرغم من ان العمليات البرية، وفق وجهة نظر الأغلبية الساحقة من المؤرخين والباحثين، كانت المحرك الرئيسى لحركة الفتح الإسلامى، فإن المحقق لهذه الظاهرة لا يسعه التسليم بهكذا راى، اذ سيتبين له بأن العمليات البحرية كانت بدورها حاسمة. فالمصادر تشير الى انه ومأأن أتم المسلون فتح الشام ومصر، فى خلافة عمر بن الخطاب (13-23) حتى سارعوا الى استغلال امكانيات هاتين المنطقتين المادية والبشرية لركوب البحر، ولمقارعة الروم فى عقر دارهم.

ان الفتح الإسلامى لكل من الشام ومصر مكن العرب، وبشكل لافت للنظر، من الإنتقال منذئذ الى الحياة البحرية. وهذه النقلة الرائعة، والمبكرة كانت قد"قتلت هذا الوهم الذى يحدثنا الرواة، ملحين أنه كان يملأ نفوسهم خوفا من البحر، وربما تعاونت معهم (أى مع مصر) الشام، فى حظ ضئيل أو جليل، على صياغة البحرية الإسلامية التى سيكون لها شأنها فيما تستقبل الدولة الإسلامية من أحداث.... ولكن مصر، بحكم أنها كانت القاعدة البحرية الأولى، هى التى لقنت المسلمين أبجدية هذا الدرس، ولعل الشام ان تكون أمدته بموادها الأولى بحكم ما فى جبالها من احراج، وما فى أحراجها من أخشاب وما فى بعض سواحلها من مراكز بحرية"[2] .

وملاحظات الأستاذ فيصل، على أهميتها، فى حاجة لبعض التوضيح. فأهمية مصر والشام البحرية فى العصور التى سبقت ظهور الإسلام هى حقيقة لا يختلف حولها اثنان؛ الا ان هذه الخصوصية كانت، وفى المقام الاول، بسبب اطلالة هذين

1- محمود أحمد أبوصوة"رؤية جديدة للفتح الإسلامى لليبيا"فى مجلة البحوث التاريخية، السنة الثامنة، العدد الأول، 1986، 35-70.

2- فيصل، شكرى، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول. دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية. بيروت، دار العلم للملايين، 1982، 132.

القطرين على البحر الأبيض المتوسط. وحيث ان أقطارا عربية أخرى كانت بدورها تتمتع بهذه الخاصية، فانه من غير الجائز ان تنتظر زمن الفتوحات الإسلامية لكى تلقنها مصر"أبجدية هذا الدرس". فمصر، والشام، وبقية السواحل المغربية كانت ومنذ عهد ليس بالقريب تحت النفوذ البيزنطى الذى كان، وكما سبقت الإشارة، متمركزا بالدرجة الأولى حول جزر هذا الحوض وسواحله. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فجميعنا يعلم بأن الجزيرة العربية كانت لها أكثر من واجهة بحرية، فهى تطل على البحر الأحمر، وعلى المحيط الهندى، وعلى بحر العرب. لذلك، وبحكم هذا الموقع، تميز سكان المناطق المطلة على هذه البحار بركوب البحر، ومنذ عهود موغلة فى القدم[1]. واذا ما كان عرب الجزيرة قد انصرفوا، قبيل الإسلام عن ركوب البحر بسبب تعرض بلادهم للسيطرة الأجنبية، ولندرة الأحراج والأخشاب الصالحة لصناعة السفن، فإن هذه المشاكل لم تكن مقصورة علىهذه المناطق، بل كانت تشمل، اذا ما صحت، مصر والشام.

بالإضافة الى ذلك، ان أولى الغزوات البحرية لم تنطلق من مصر مثلا، بل انطلقت، وكما يعلم الجميع من شواطئ الجزيرة العربية. فالأستاذ حورانى، نقلا عن بعض المصادر العربية، يذكر بأن عامل البحرين عثمان الثقفى كان قد أغار، فى خلافة عمر بن الخطاب، على شواطئ الهند، وبالتحديد على طنحة بالقرب من بومباى[2]. كمايذكر الطبرى، ضمن أحداث السنة السابعة عشر بأن العلاء بن الحضرمى، والى البحرين كان قد ندب"أهل البحرين الى فارس فتسرعوا الى ذلك وفرقهم أجنادا.... فعبرت تلك الجنود من البحرين الى فارس"[3]. وفشل هذه الحملة البحرية كما صورتها المصادر العربية، يبدو أنه لم يؤكد مخاوف الخليفة عمر بن الخطاب الذى نهى العلاء بن الحضرمى عن ركوب البحر، بل كان، وعلى حد تعبير الأستاذ حورانى المسؤول أيضا على شيوع فكرة تخوف العرب من ركوب

1- السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادى. البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس. بيروت، دار النهضة العربية، 1969، 13.

2-G. F. Hoorani,Arab seafaring in the Indian Ocean in ancient and early medieval times,Princeton University Press,1955,53.

3- الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار الفكر، 1979، المجلد الثانى، 212.

البحر[1]. وشيوع هذه الفكرة لا يعود فى حقيقة الأمر الى تخوف عرب القرن الأول وقياداتهم من البحر، ولكنه يعكس، بل ويتلون برؤية مؤرخى الإسلام الأول. فأهم تآليف هؤلاء تم إنجازها، بل واجازتها فى العصر العباسى. والجميع يعلم بان مركز الخلافة فى عصر هؤلاء انتقل من دمشق/الشام ذات التراث البحرى، والمجاورة لبيزنطة ولممتلكاتها البحرية، الى بلاد الرافدين ذات الإستراتيجية والتراث البريين. ان عملية الإنتقال هذه انعكست من ناحية على الأعمال البحرية، خاصة فى المتوسط، وعلى التآليف المتعلقة بنشاط المسلمين البحرى فى عهد بنى أمية من ناحية أخرى. لذلك فالإنجازات التى تناقلتها المصادر الأولى، والمتأثرة بروح العصر، لم تحتل الفتوحات البحرية بينها الأهمية التى تليق بها. واذا أضفنا لهذا البعد، بعد عداء بنى العباس لبنى أمية، ذات الباع الطويل فى هذا المجال، فإن المرء لا يستغرب كثيرا ندرة التفاصيل المتعلقة بالعمليات البحرية المبكرة من ناحية، وتزامنها والعمليات البرية من ناحية أخرى.

فالمتمعن فى عمليات الفتح الإسلامى فى المغرب، يلاحظ بأن العمليات البحرية لم تكن متزامنة والعمايات البرية فحسب، بل الأهم من ذلك ان ركوب أهل البلاد البحر لم ينتظر قدوم المصريين!ففى سياق حديث المالكى عن حملة عبد الله بن سعد على افريقية سنة 28ه يشير الى أن سرية كانت قد تقدمت جيش ابن سعد، ولما وصلت طرابلس "واذا ثم مركب (أظنها مراكب) قد أرست، فشدوا عليهم، فأقاموا ساعة ثم استأسروا، فكتفوا وهم مائة، حتى لحق بهم ابن أبى السرح فقتلهم وتحصن أهل طرابلس، و لم يعرضوا لنا، و لم نهجم وأخذنا ما فى السفن، فكانت هذه أول غنيمة أصيبت"[2]. وعلى الرغم من أن المالكى لم يذكر ما آلت اليه هذه السفن، إلا أننى أعتقد بأنها الأخرى كانت قد ضمت الى ممتلكات "الدولة" لتستغل لاحقا فى نقل الغنائم، وفى مساندة العمليات البرية. فالمصادر تفيد بأنه وما ان انتهى ابن أبى السرح من فتح الأجزاء الجنوبية من افريقية حتى كتب الى"خليفته بمصر يأمره ان ينفذ اليه مراكب فى البحر يجعل فيها غنائم المسلمين،

1-G. F. Hoorani,Arab seafaring,55.

2- المالكى، أبو بكر عبد الله. رياض النفوس، تحقيق. د. حسين مؤنس. القاهرة، 1951، 10.

فلما وصل الى طرابلس وافته المراكب"[1]. هذا وان كنا لا نستبعد قدوم المراكب من مصر او نستغربه، ولكننا نستغرب سكوت المصادر عن المراكب التى غنمها المسلمون امام مدينة طرابلس، خاصة وان المصادر تذكر بان المراكب المصرية وافت الأمير ابن أبى السرح بهذه المدينة!

هذا من ناحية، من ناحية أخرى يمكن للمرء ان يستشهد بوقائع لاحقة تؤكد امكانية استخدام المراكب المحلية فى عمليات الفتوحات البحرية، وتزامنها مع العمليات البرية. فالأمير معاوية بن حديج الذى أرسله الخليفة معاوية بن أبى سفيان لإستكمال فتح المناطق الجنوبية لإفريقية سنة 46هـ، يبعث، وفى نفس السنة، برويفع بن ثابت لفتح جزيرة جربة[2]. كما تفيد المصادر نفسها بأن معاوية بن حديج كان قد سير، وفى نفس السنة، حملة الى صقلية"حيث أقام المسلمون شهرا بقيادة عبد الله بن قيس، وعادوا الى إفريقية بغنائم كثيرة، ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر"[3]. هذا وتجدر الإشارة الى ان المصادر لم تذكر، وفى الحادثتين، وصول سفن من مصر، أو من غير مصر للقيام بالغزو البحرى. كما ان المتمعن فى رواية ابن عذارى، مثلا، والتى تحدد عدد السفن التى ابحرت من إفريقية تجاه صقلية، بمئتى سفينة، يمكنه ان يزعم بأن هذه السفن هى سفن إفريقية تزامن استخدامها والعمليات البرية الكبرى.

والسؤال الذى يطرح الآن هو، واذا ما أجاز المرء ظاهرة التزامن المقترحة، فإنه يحق لأى إمرء أن يتساءل عن سبب بطء العمليات البحرية من ناحية، وعجز القيادة العربية، من ناحية أخرى، عن فتح الجزر التى تفصل الضفة الشمالية عن الجنوبية فى وقت مبكر؟ للإجابة على هذا التساؤل علينا ان نذكر بأن تزامن العمليات البرية بالبحرية هو الذى يفسر جزئيا عجز فتح المسلمين لجزر الحوض الغربى للمتوسط. فسرعة فتح العديد من المناطق فى المشرق نتج عنه سقوط العديد من الجزر، وبنفس السرعة تقريبا؛ أما فى بلاد المغرب حيث استغرقت الفتوحات

1- المصدر نفسه، 17.
2- الزاوى، الطاهر، ولاة طرابلس من بداية الفتح الى نهاية العهد التركى، 1970، 23.
3- نقلا عن كتاب د. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1978، الجزء الأول، 173.

البرية وقتا طويلا، ولأسباب لا يتسع المجال لذكرها، فإن الفتوحات البحرية المحكومة بسير العمليات البرية، كان عليها ان تنتظر عودة العمليات البرية، ونجاحها فى السيطرة على أهم المسالك البرية. لذلك، ولأهمية هذه العلاقة فى توضيح خلفية أحداث هذه المرحلة، رأيت أن أ ستعرض مرة أخرى بعض الأحداث التى تبرز تظافر جهود القوتين، البرية والبحرية، الرامية الى السيطرة على أهم مسالك الحوض الغربى للمتوسط.

كنت قد لمحت كيف ان القيادة العربية كانت قد سارعت، قبل الفتح الإسلامى لمصر والشام، الى استعمال البحر فى فتح بلاد فارس؛ كما كنت قد ذكرت كيف ان الأمير معاوية بن أبى سفيان لم يكن مصرا ومنذ خلافة عمر بن الخطاب، على ركوب البحر فحسب، بل وعلى ضرورة فتح الجزر التى تقع قبالة السواحل الشامية، حتى قبل ان تحكم القيادة العربية قبضتها على الشام ومصر. والجدير بالملاحظة ان قيام معاوية بن أبى سفيان بفتح جزيرة قبرص سنة 28هـ كان قد تزامن وفتح عبد الله بن أبى سرح جنوب إفريقية. إن تزامن العمليات البرية بالبحرية كان قد أقلق مضاجع الروم الذين ما كان يدور بخلدهم ان يجرأالعرب عليهم خارج نطاق المسالك البرية. لذلك، وما ان سيطر العرب على الأجزاء الشرقية من إفريقية، أهم معاقل الروم الغربية عندئذ، وعلى قبرص، حتى بادر الروم الى مهاجمة العرب عن طريق البحر. فإبن الأثير يذكر مثلا بأن سبب غزوة ذات الصوارى (31، أو34) للهجرة هو ان "المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم، وسبوهم، خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام، فخرجوا فى خمسمائة مركب أو ستمائة، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبى سفيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبى سرح..... فانهزم قسطنطين جريحا و لم ينج من الروم الا الشديد، وأما قسطنطين فإنه سار فى مركبه الى صقلية"[1].

وعلىالرغم من ان عمليات الفتح بصفة عامة كانت قد توقفت طوال فترة الفتنة الكبرى، فإنه، ومأان كادت تفضى الخلافة الى معاوية بن أبى سفيان حتى وجه الى افريقية معاوية بن حديج الذى بعث إستراتيجية الفتح الإسلامى، من رقدتها،

1- ابن الأثير، عزالدين، الكامل فى التاريخ، بيروت، 1965، المجلد الثالث، 117-118.

مهاجما، وكما سبقت الإشارة، العدو فى البروفوق البحر. فالمصادر تذكر بأن هذا الأخير لم يكتف بالتوغل فى المناطق الساحلية، بل وجه عبد الله بن قيس الى صقلية غازيا. كما يذكر البلاذرى، وبإقتضاب ملفت للنظر، كيف ان القيادة العربية كانت تولى العمليات البحرية نفس الإهتمام الذى كانت توليه للعمليات البرية. فبعد ان سيطرت القيادة العربية على الأجزاء الجنوبية من إفريقية، وذلك بفضل تهديد المسلمين المستمر للشواطئ/الجزر البيزنطية، وبفضل بناء مدينة القيروان سنة 50 للهجرة، يسارع معاوية بن أبى سفيان الى مهاجمة المناطق الشرقية، البرى منها والبحرى، ضمن سياسة غايتها الإستحواذ على كل الممتلكات البيزنطية. فمعاوية، وكما تشير الى ذلك المصادر كان"يغزى برا وبحرا، فبعث جنادة بن أبى أمية الأزدى الى رودس... ففتحها عنوة، وكانت غيضة فى البحر، وأمره معاوية، فأنزلها قوما من المسلمين وكان ذلك سنة اثنتين وخمسين"[1] . كما ان العمليات البحرية لم تتوقف، فى حقيقة الأمر، عند هذا الحد اذ ان جنادة هذا كان قد تمكن من فتح جزيرة أروادا وهى"جزيرة بالقرب من القسطنطينية وغزا جنادة إقريطش؛ فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق"[2]

وفى زمن الوليد بن عبد الملك (86-96هـ) تستمر العمليات البرية والبحرية فى المغرب، محققة العديد من الإنتصارات، لعل من أبرزها فتح بقية بلاد المغرب والعبور الى بلاد الأندلس، وفتحها. ان هذا العمل الرائع الذى توج مساعى دولة بنى أمية الرامية الى السيطرة على سواحل ضفة المتوسط الشمالية، هو خير دليل على اقتران العمل البرى بالبحرى، والأهم من ذلك وعى القيادة العربية بهذا البعد الذى يستحيل بدونه التفكير فىتحقيق "وحدة" المتوسط وفق مفهوم ذلك العصر. ووعى القياد ةالعربية "بوحدة" المتوسط، وبدور الجزر فى تحقيقها، هى حقيقة كانت تعيها القيادات العربية فى العصر الأموى خاصة ولكن المصادر تكاد تتجاهلها وتفضل التلميح اليها. ولعل من أبرز ملامح هذا الوعى هو قيام القيادة العربية بوضع خطة تستهدف الحوض بأكمله؛ فبعد ان تمت لها السيطرة على الجزر/ الحواجز الشرقية التى تفصل ضفة الشمال عن الجنوب، ونتيجة بطء فتح

1- البلاذرى، أبو الحسن، فتوح البلدان، 233.
2- المصدر نفسه، 233.

جزر الحوض الغربي للمتوسط التي لا تزال تأتمر بأوامر المركز (القسطنطينية) قررالمسلمون غزو القسطنطينية من الغرب ؛ فبالإضافة الى المناوشات البرية والبحرية التيكانت تدور بين المسلمين والبيزنطيين في مناطقهما الحدودية، تخبرنا بعض المصادر كيف ان الأمير موسى بن النصير يتخذ قرار إختراق سواحل البحرالمتوسط الشمالية" حتى يصل الى القسطنطينية"[1].

وسواء كانت مساعي موسى بن النصير، أو ابنه عبد العزيز من بعده، ترمي بالفعل الى السيطرة على القسطنطينية أو لا، فإن ما تذكره النصوص تارة، وتلمح له تارة أخرى، هو ان سقوط الأندلس لم يمثل غاية في حد ذاته. فالجيوش العربية التي ما انفكت تتوغل داخل الأراضي الفرنسية، تمكنت في نهاية الأمر من السيطرة على أهم مدنها النهرية. وعلى الرغم من ان "موقعة بلاط الشهداء"سنة 114هـ، كما تجمع على ذلك الأعمال الغربية، كانت قد انهت/أوقفت التوسع الإسلامي غربي أوربا، فإن الشواهد تؤكد، وبما لا يدع مجالا للشك، استمرارية التواجد العربي/الإسلامي في جنوب فرنسا، وفي ممرات جبال الألب التي تربط ايطاليا ببقية "بلدان "أوروبا الغربيَة. ان السيطرة العربية /الإسلامية هذه استمرت حتى منتصف القرن الرابع للإسلام/العاشر الميلادي، أي حتىتاريخ إعتلاء الحكم الثاني عرش قرطبة سنة 350هـ. فهذا الأخير وكما تصفه المراجع الغربية كان ميالا للسلم، وكان أكثرتسامحا من والده عبد الرحمن الثالث؛ وتسامح الحكم الثاني، وخاصة مسالمته لجيرانه المسيحيين، وتوقفه عن دعم التواجد العربي في جنوب فرنسا وفي ممرات جبال الألب، كانت من بين الأسباب التي عملت على اختفاء الحضور العربي في المناطق الالبية خاصة.[2]

ان السياسة المتبعة من قبل القيادة العربية، والواعية بطبيعة العلاقة التي تربط ضفتي المتوسط ببعضها البعض، كانت على دراية أيضا بأهمية الدور الذى تلعبه جزر المتوسط في الدفاع عن السواحل الشمالية، وعند مهاجمة الضفة الجنوبية. لذلك، وحتى بعد سقوط دولة بني أمية الراعية للعمليات البحرية"par-excellence"،

1- نقلا عن حسين مؤنس، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، 34-35.

2-M. Wenner"The Arab/Muslim presence in Medieval central Europe",in int. journal of middle east studies,vol. 12. 1980. 64-65.

يستمر، في بادئ الأمر أمراء القيروان المستقلين عن بغداد، ثم ولاة دولة بني العباس فيما بعد في المنطقة، في مهاجمة جزر المتوسط الشمالية.

ولعلنا في حاجة للتذكير مرة أخرى ببدايات العمليات البحرية التي استهدفت جزر الشمال. فالعودة لشواهد هذ المرحلة، وبعد ان استغل بعضها للتدليل على تزامن العمليات البرية بالبحرية، بالإمكان توظيفها الآن في استكمال الإجابة المتعلقة بعجز العرب عن فتح الجزر الواقعة في الحوض الغربي للمتوسط غداة الإنتهاء من فتح المغرب والأندلس.

فبسيطرة العرب على جل جزر المتوسط الشرقية، أو على الأقل الزام وجوهها بدفع الجزية، أحس العرب بضرورة الإتجاه نحو جزر الحوض الغربي للمتوسط. فهزيمة البيزنطيين في ذات الصواري، والتي سبقها احتلال المسلمين لجزيرة قبرص، جعلتهم يلجأون الى الحوض الغربي للمتوسط ويتخذون من جزره مركزا يستعيدون فيه توازنهم لينطلقوا بعد ذلك لإسترجاع مستعمراتهم بالمغرب. فلقد أفادت المصادر بأنه وفي حين هاجم الروم في مراكب كثيرة وقوة عظيمة برقة، فإنهم أغاروا"من البحر علىمن كان بقي من المسلمين بمدينة تونس.... فقتلوا من بها وسبوا و لم يكن للمسلمين شئ يحصنهم... فلما بلغ ذلك عبد الملك عظم عليه... فكتب عبد الملك الى أخيه عبد العزيز وهو والى مصر ان يوجه الى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده... وكتب الى ابن النعمان يأمره بأن يبني دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر"[1].

إن ردة فعل القيادة العربية لم تنته عند إصدار أمر بناء دار صناعة بمدينة تونس فحسب، بل تميزت بتواتر عمليات مهاجمة الروم في عقر دارهم. فبدخول موسى بن نصير إفريقية سنة 86 للهجرة تواصلت مهاجمة المسلمين للروم في البر وفي البحر. لذلك وما ان أتم هذا الأمير فتح بلاد المغرب، حتى وجه أنظاره لبلاد الأندلس التي فتحت هي الأخرى في عهده. وكان من الطبيعي وبعد ان احكم سيطرته على المغرب والأندلس، واستكمل بناء دار الصناعة بتونس وجر البحر اليها، ان يوجه اهتمامه الى جزر الحوض الغربي للمتوسط والتي كانت تستغل

1- البكري، أبو عبد الله، المغرب في ذكر افريقية والمغرب، بغداد، 1964، 36-37.

لمهاجمة السواحل المغاربية. فلقد ذكرت بعض المصادران حرص ابن نصير على ضرورة الغزو فى البحر تجلى فى عزمه على ركوب البحرلغزو صقلية"بنفسه، فرغب الناس وتسارعوا"[1]. وعلى الرغم من ان هذا الوالى لم يشارك فى هذه الغزوة، ولكن تكليفه ابنه عبدالله وتأميره على هذه الحملة هو أكبر دليل على أهمية الغزوالبحرى فى هذه المرحلة؛ فالحملات التى شنتها القوات الإسلامية طوال ولاية موسى بن نصير لم تقتصرعلى جزيرة صقلية بل شملت العديد من جزر الحوض الغربى للمتوسط. ففى سنة تسع وثمانين"أغزى موسى بن نصير ابنه عبدالله بن موسى فأتى ميورقة ومنورقة -جزيرتين بين صقلية والأندلس- وافتتحهما"[2]. وفى نفس السنة عقد موسى بن نصير لعبد الله بن مرة"على بحر افريقية، فأصاب سردانية، وافتتح مدائنها"[3].

مع ذلك، وعلى الرغم من ان العمليات التى استهدفت جزرالحوض الغربى بصفة عامةوجزيرة صقلية بصفة خاصة تعثرت بعض الشئ فى بداية القرن الثانى للإسلام، ولكنها لم تتوقف كلية طوال خلافة بنى أمية، وبالتالى فإنه يحق لأى انسان ان يتساءل عن سبب عجز المسلمين عن فتح هذه الجزر التى يفترض سقوطها بعد فتح الأندلس ؟

ان المشاكل التى واجهها المغرب غداة فتح بلاد الأندلس، والتى سبق وان بينتها فى غير هذا المكان[4]، كانت حسب ظنى من بين أهم أسباب عجز العرب عن فتح جزر الحوض الغربى للمتوسط، مباشرة بعد سقوط الاندلس. ونظرا لأهمية مشاكل المغرب الداخلية، ودورها فى تأجيل حسم الصراع العربى/البيزنطى فى هذا الحوض، رأيت أن أستشهد ببعض الأحداث التى تؤيد هذه الفرضية وتدعمها. فالمصادر تذكر على سبيل المثال بأن خلافا كان قد شب بين أتباع ابن نصير، بعد

1- ابن قتيبة، ابو محمدعبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزينى، القاهرة، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع، بدون تاريخ، الجزء الثانى، 58.

2- ابن خياط، خليفة، تاريخ ابن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1977، 302.

3- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، 58.

4- أبوصوة، محمود أحمد، مقدمة فى تاريخ المغرب الإجتماعى والإقتصادى، فاليتا، الجا، 1997.

فتح الأندلس من ناحية، وبين ابن نصير والخليفة سليمان بن عبد الملك من ناحية ثانية. وبدخول محمد بن يزيد إفريقية سنة 97 للهجرة دخلت المنطقة مرحلة بالإمكان تسميتها"بمرحلة تصفية الحسابات اذ اقتصرعمل الوالى الجديد الذى خلف ابن نصير"على أخذ أهل موسى وولده وكل من تلبس به واستأصل أموالهم".[1] أما يزيد بن أبى مسلم، صاحب شرطة الحجاج، فإنه كان على حد تعبير ابن عذارى"ظلوما غشوما"[2]. وعلى الرغم من بعض الإصلاحات التى قام بها الأمير بشر بن صفوان فى المنطقة، ومحاولته غزو صقلية بنفسه، إلا أن عبيدة بن عبد الرحمن السلمى الذى دخل إفريقية مباشرة بعد وفاة ابن صفوان، يستهل ولايته بأخذ عمال بشر وأصحابه فيغرمهم ويعذبهم[3].

ولكن وعلى الرغم من خطورة مشاكل بلاد المغرب الداخليةوالتى أدت الى قيام ثورة ميسرة وخروج العديد من المناطق عن سلطان بنى أمية، فإن اهتمام ولاة بنى أمية بغزو جزر الحوض الغربى للمتوسط شغل وباستمرار حيزا كبيرا من تفكيرهم. فعلى الرغم مثلا من ان يزيد بن أبى مسلم واجه مشاكل عديدة فى المنطقة أدت فى نهاية الأمر الى مقتله، ولكن، وليقينه بأهمية جزيرة صقلية فى هذا الحوض، أغزى محمد بن أوس الأنصارى صقلية"وأغزى الناس فغنم وسلم"[4]. هذا وبالإمكان أيضا الإستشهاد بوال آخر تميزت فترته بإضطرابات عدة ولكنه يرسل مع ذلك بمراكب تغزو صقلية وتعود ناجية. فعبيدة الله بن الحبحاب الذى دخل المغرب سنة ست عشرة ومائة والذى ترك أمر تسيير المنطقة لأبناء "أعجبتهم أنفسهم" ولعامل (عامله على طنجة عمر بن عبد الله المرادى) "أساء السيرة وتعدى فى الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعم انهم فئ المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله.... فكان فعله الذميم هذا سببالنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل فى العباد. نعوذ بالله من الظلم الذى هو وبال على

1- ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان، وليفى بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ، الجزء الأول، 47.
2- المصدر نفسه، الجزء الأول، 48.
3- المصدر نفسه، الجزء الأول، 50.
4- ابن خياط، تاريخ ابن خياط، 326.

أهله"، أغزى حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع صقلية، حسب رواية ابن عذارى[1]، أوعثمان بن أبى عبيدة وفق رواية ابن الخياط[2].

تأسيسا على ما تقدم فإن تأخر فتح صقلية كان أكثر من طبيعى؛ فتزامن العمليات البرية بالبحرية فى السابق، وخلو المنطقة من المشاكل الداخلية كانا من أهم أسباب نجاح الفتوحات الإسلامية. وأمام تفاقم مشاكل المغرب اقتصرت العمليات البحرية طوال فترة الفتن الداخلية على الغزوات الخاطفة والتى تشبه والى حد كبير عمليات "جرائد الخيل" المستخدمة فى العمليات البرية. وعلى الرغم من تواضع النتائج التى تحققها هذه العمليلت ولكن بفضلها، وبفضلها فقط تتأكد امكانية الفتح من عدمها.

فالمصادر تجمع على ان قيام الولاة بقيادة الحملات البرية والبحرية تسبقها دوما مناوشات يقودها معاونو هذا الوالى أوذاك. ففتح المسلمين لإفريقية سبقته مناوشات قامت بها جرائد الخيل؛ وحين تأكد قرب الفتح يستأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان بن عفان فى فتح إفريقية فيجهز اليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة؛ كما أن دخول موسى بن نصير الأندلس لم يتم إلا بعد عبور كل من طريف وطارق بن زياد الى شبه جزيرة ايبيريا. والشواهد التى تؤكد هذه الإستراتيجية كثيرة، ولا أرى ضرورة للإسترسال فى عرضها. فما أردت التنبيه اليه هو ان قرب فتح منطقة ما فى البر، أو جزيرة ما تتم فى العادة بعد عمليات جس النبض هذه والتى لا يتولاها قواد الحملة. لذلك فإن إقدام بشر بن صفوان والى إفريقية على غزو صقلية بنفسه، لا يؤكد هذه الإستراتيجية فحسب، بل هو دليل علىإقتراب موعد فتح هذه الجزيرة. إلا أن هذه الأخيرة، والتى لم يعد بإمكانها تهديد السواحل المغربية، لم تسقط.

وفشل العرب فى فتح جزيرة صقلية لا يكمن فى قوة الجزيرة، ولا فى مناعة تحصيناتها، بل ولا حتى فى قلة خبرة العرب فى ركوب البحر، ولكنه يكمن وكما سبقت الإشارة فى تفاقم مشاكل المغرب الداخلية. فتجاهل موسى بن نصير لمصالح المتواطنين السابقين، من مشارقة ومغاربة، ومحاباته لأبنائه ولبعض أعوانه من

1- ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الأول، 51.
2- ابن الخياط، تاريخ ابن الخياط، 347.

المتواطنين اللاحقين، كانت ضمن عوامل أخرى، لعل من أهمها سياسة دولة بنى أمية المالية "التعسفية"، و الصراع من أجل السلطة، السبب المباشرفى إخفاق القيادة العربية فى فتح جزيرة صقلية مباشرة بعد فتح الأندلس. ان فشل القيادة العربية فى تحقيق إنتصارات حقيقية فى الحوض الغربى للمتوسط كانت له آضرار جانبية أخرى، لعل من أبرزها تفكك منطقة المغرب الذى أدى الى ظهور دويلات كان همها الإستحواذ على السلطة، والسيطرة على مسالك الذهب والتجارة البرية. واذا أضفنا الى كل هذه الأسباب، سبب غياب داعى المصلحة العليا raison D' Etat، نكون قد توصلنا الى معرفة سبب عجز القيادة العربية عن مد نفوذها على سواحل ضفة المتوسط الشمالية. زد عن ذلك ان قيام الدولة العباسية ذات الإستراتيجية البرية فى الفترة اللاحقة، والتى عجزت عن ضم المغرب والأندلس، تسبب بدوره فى تأجيل فتح جزيرة صقلية. فهذه الأسرة وبعد ان تأكد لها استحالة الإستحواذ على المغربين الأوسط والأقصى وبلاد الأندلس، اقتصر اهتمامها على نسج المؤامرات ضد أعدائها العلويين والأمويين الذين أقاموا دويلاتهم بهذه البلاد.

مرة أخرى ان تجزئة بلاد المغرب من ناحية، وإهمال دولة بنى العباس للأعمال البحرية فى المتوسط من ناحية أخرى، جعلت سكان إفريقية يتقاعسون عن مهاجمة البيزنطيين فى مناطق مختلفة من هذا الحوض. كما تجدر الإشارة الى ان قيام دويلات بالمنطقة ضاعف في بادئ الأمر من مشاكل المغرب بصفة عامة، و إفريقية بصفة خاصة. فهذه الأخيرة، ونتيجة انتزاء عبد الرحمن بن حبيب بأمرها، استقل العديد من وجهاءالمغرب بمدن زويلة، وقفصة، وتيهرت، وسجلماسة، الأمر الذى جعل هذه المنطقة تحرم من عوائد تجارة الصحراء، والتى تمثل أحد قطبى انتعاشها الإقتصادى . لذلك، وحتى تعيد إفريقية لإقتصادها بعض توازنها كان عليها ان تتوجه نحو القطب الثانى، والممتد على سواحل ضفة المتوسط الشمالية. فعلى الرغم من انشغال عبد الرحمن بن حبيب بالفتن التى شهدتها إفريقية، ولكنه يقوم بغزو صقلية سنة 135هـ؛ كما غزى وفى نفس السنة "سردانية، وصالحهم على الجزية"[1]. ولكن المشاكل الداخلية تكون مرة أخرى سببا مباشرا فى عدم تواصل العمليات

1- ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الأول، 65.

البحرية. وانشغال إفريقيـة بفتنهـا الداخليـة لم يفـوت عليهـا هـذه المرة فتـح جـزر المتوسط فحسب، بل جعلها تهمل أساطيلها الأمر الذى مكـن وجهـاء صقليـة مـن إعادة بناء حصونهم، وتحصيناتهم. فبعد غزوة عبد الرحمن بن حبيب سـنة 130هـ، يقول النويرى"اشتغل ولاة إفريقية بالفتن التى قدمنا ذكرها فى أخبارهم، فأمن أهل جزيرة صقلية وعمرها الروم من كـل الجهـات، وبنـوا بهـا المعـاقل والحصـون، و لم يتركوا جبلا إلاجعلوا عليـه حصنـا"[1]. ان هـذا الإهمـال الـذى أمهـل روم صقليـة، جرأهم فى ذات الوقت على مهاجمة سواحل إفريقية. وكـان علـى ولاة دولـة بنـى العباس فى إفريقية المشغولين بالفتن الداخلية ان يركنوا فى هذه المرحلـة الى سياسـة دفاعية قوامها تحصين مدن الساحل، وانشاء الأربطة على أهم مدنه. وبفضـل هـذه التحصينات التى لم تقتصر فى حقيقة الأمر على ضفة دون الأخرى ساد الهدوءعلى هذا الحوض.

إلا ان هذه الهدأة لم تستمر طويلا، فلقد استهل "القرن التاسع فى الحوض الغربـى من البحر المتوسط بهجوم جديد كبير الحجم قامت بـه البحريـات الإسـلامية علـى السواحل المسيحية"[2]. وهذا النشاط البحرى المسـجل فـى القـرن التاسـع لم يقتصـر على أمراء إفريقية، بل شارك فيه أمراء الأندلس من بنى أمية. فتظافر جهـود هـاتين القوتين، وعلى الرغم من تنازعهمـا علـى المغـرب، كلـل فـى خاتمـة المطـاف بفتـح جزيرة صقلية. وإستقلال إفريقية بأمر صقلية دون الأندلس لا يعود الى قـرب هـذه الجزيـرة مـن إفريقيـة، فهـى الى الأراضـى الإيطاليـة مثــلا أقــرب[3]، بـل يعـود الى قانون/ظاهرة التجاذب التىسهلت وعلى مر العصور للقـوى المنتصبـة علـى إحـدى الضفتين، متى كانت متماسكة داخليا، الإنتقال الى الضفة المقابلة. فعلاقة التجاذب

1- النويرى، أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ المغرب الإسلامى فـى العصـر الوسيط. مـن كتـاب نهاية الأرب فى فنون الأدب. تحقيق د. مصطفى أبو ضيف أحمد. الدار البيضاء، دار النشـر المغربية، 1985، 459.

2- الطالبى، الدولة الأغلبية، 426.

3- ففى المجلس الذى عقد للبث فـى موضـوع فتـح صقلية طرحـت قضيـة قـرب صقليـة مـن الأراضى الإيطالية، وفى حين رأى بعضهم أن تغزى وان تتخذ وطنا، سأل سحنون السؤال التالى: "كم بينها وبين بلد الروم؟ قالوا: يروح الإنسان مرتين وثلاثـة فـى النهـار ويرجـع. وقال ومن ناحية إفريقية؟ قالوا: يوم وليلة. قال: لو كنت طائرا ما طـرت عليهـا"النويـرى، تاريخ المغرب الإسلامى، 460.

هذه والتى استغلت من القيادة العربية فى السيطرة على أهم مراكز هذا المجال الحيوى، حتى وان تعثرت ولأسباب سبق توضيح بعضها، ولكنهاأكدت علاقة إعتقد البعض أنها مقتصرة على الضفة الشمالية. فالعلاقة التى ميزت تاريخ هذا الحوض، لم تكن، وكما ذهب الى ذلك"بيرين"، مبنية على وحدة هذا الحوض، بل كانت مبنية على تجاذب ضفة الى أخرى، تستغل الأقوى الأضعف فى فرض هيمنتها وجعلها بالتالى تابعة لها. ودخول العرب الى هذا الحوض لم يلغ وحدة هذا الحوض، اذ لم تكن هناك وحدة فى الأساس، ولكنه سعى الى فرض هذه العلاقة التىاستهجنها عمل بيرين. واذا ما فشل العرب فى فرض هذه العلاقة على كامل هذا الحوض فذلك يعود، وكما بينت هذا فى دراسة"مبحث فى تاريخ الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية" الى طبيعة الضفة الشمالية للمتوسط.

أعود لأقول بأن فتح صقلية الذى تظافرت فيه قوى عربية من الشمال والجنوب، لم يكن سببه، وكما يعتقد البعض "مخلصا له (أى لزيادة الله) من متاعب داخلية كثيرة"! واذ كنت لا أنكر أهمية هذا العامل، الا انه يجب التنبيه الى الحقيقة التاريخية التالية، وهى ان اعداد هذه الحملة لم يضع حدا للفتن الداخلية، سواء فى عهد زيادة الله، أو فى عهد خلفائه. فالفتنة التى قادها منصور الطنبذى، وعامر بن نافع لم تضع أوزارها الا بعد وفاة هذا الأمير سنة 213 للهجرة[1]. وعلى الرغم من ان فتح صقلية استغرق قرابة"75 سنة، أى منذ سنة 827 ميلادية الى سنة 902"[2] فان الفتن الداخلية لم تتوقف سواء فى عهد زيادة الله، أو فى عهد من تولى البلاد من بعده. ففى امارته خرج فضل بن أبى العنبر سنة 218هـ، وفى عهد أبى العقال ابراهيم بن الأغلب (223-226) كانت "وقعة بإفريقية بين عيسى بن ريعان الأزدى.. وبين لواتة وزواغة ومكناسة"[3]. وفى ولاية أبى العباس محمد بن ابراهيم بن الأغلب (226-242)، سجلت العديد من المصادر فتنا نذكر منها على سبيل المثال ثورة أخيه أحمد بن الأغلب سنة 231ه، وثورة عمرو بن سليم التجيبى بتونس سنة 234.

1- ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الأول، 103.

2-J. Hure,Histoire de la Sicile,64.

3- ابن عذارى، البيان المغرب، الجزءالأول، 107.

خلاصة القول، فأن توجه أنظار الجند الى أعمال خارجية تلهيهم وتجعلهم في ذات الوقت يغضون الطرف عن تجاوزات هذا الأمير أو ذاك، هي مناورة متعارف عليها ويلجأ اليها العديد من الحكام للتخلص من الأزمات التي تهدد عروشهم. وهذا الرأى قد يصدق على عديد الحملات، ولكنه لا ينسحب على هذه الحملة؛ فظروف فتح صقلية لها أبعاد مغايرة كنت قد أتيت على بعضها ولا أرى مانعا من التذكير ببعضها من جديد. ففتح هذه الجزيرة كان يخضع، كما تخضع بقية شواطئ وجزر المتوسط، للضرورة التاريخية. لأنه، واذا ما تقاعس العرب عن فتح جزر الشمال وشواطئه، فإن ساداته لن يترددوا فى القيام بهذا العمل. وبصرف النظر عن عاملى التجانس والتكامل اللذين ميزا تاريخ هذا الحوض، فإن ظاهرة التجاذب التى تم التطرق اليها فى هذا العمل كانت قد تولدت عنها ظاهرة تبعية هذه الجهة أو تلك، لهذا الجانب أو ذاك. فما كانت لتقنع القوى المنتصبة على إحدى الضفتين بعلاقات سياسية تتميز بالإحترام المتبادل وبالندية، بل كان همها ضم الضفة المقابلةوبالقوة. وتوقف القوى المنتصبة على الضفتين، وبسبب مشاكلهما الداخلية، عن القيام بعمليات بحرية توسعية ولفترة تجاوزت نصف القرن فذلك لا يعكس قناعتهما .بممتلكاتهما وقبولهما بالوضع الراهن"Status quo". فالمتمعن فى الأحداث/المتغيرات التى جدت خلال هذه المهلة يرى بان المناوشات بين الطرفين لم تتوقف كلية. ولكن، وحين تبين للطرفين عجزهما عن السيطرة لجآ الى ابرام عقود واتفاقيات مهمتها تنظيم العمليات التجارية بينهما[1]. وبصرف النظر عن السبب الحقيقى الذى فجر الموقف من جديد بين الأغالبة والبيزنطيين، فإن المصادر تحمل الطرفين هذه المسؤولية. ونجاح الأغالبة فى فتح صقلية لم يكن سببه كما يتوهم البعض، تفاقم مشاكل الإمارة الداخلية، بل كانت له عوامل أخرى يمكن اضافتها للعوامل المقترحة آنفا.

1- ان المصادر العربية تتحاشى فى حقيقة الأمر، وبحكم خلفية أصحابها الدينية التطرق الى الإتفاقيات التى تبرم بين المسلمين والمسيحيين، خاصة فى قرون الإسلام الأولى، لذلك فإن الباحث لا يعثر على هكذا معلومات الا عرضا. ففى سياق حديث المالكى مثلا عن البهلول بن راشد يلمح صاحب الرياض الى ان والىإفريقية، محمد بن مقاتل العكى، كان قد أبرم عهودا تجارية مع صاحب صقلية. فالعكى، وهو آخر ولاة العباسيين بإفريقية (181-184هـ) "كان يلاطف الطاغية ويبعث اليه بالألطاف، ويكافئه الطاغية فكتب الطاغية الى العكى ان ابعث الى بالنحاس والحديد والسلاح"رياض النفوس، 141-142.

فبسبب انشغال الدولة الكارولنجية بمشاكلها الداخلية وبعزوفها عن ركوب البحر، وبحكم اهتمام الممالك المغاربية (المدرارية، والرستمية) بالمسالك البرية، أصبح الحوض الغربى للمتوسط محل نزاع وتعاون فى آن واحد بين الإمارة الأغلبية بالقيروان، والإمارة الأموية بالأندلس. وتنامى قوة البحرية الإسلامية فى الحوض الغربى للمتوسط وتعاونهما الذى أنكرته بعض الأعمال الغربية،[1] لم يمكنها من فتح صقلية فحسب، بل مكنها وفى نفس المرحلة من فتح جزيرة اقريطش. وفتح هذه الأخيرة يحتاج الى ملاحظة سريعة. فانطلاقا من أهمية ظاهرة التجاذب المقترحة فى هذه الدراسة فانه تجدر الإشارة الى ان البحرية التى قامت بفتح هذه الجزيرة قدمت من الأندلس؛ ولكن الحملة لم تنطلق من الأندلس رأسا الى هذه الجزيرة، بل انطلقت من مدينة الإسكندرية. وبصرف النظر عن دوافع خروج هذه الحملة من الإسكندرية، ولكن قرب جزيرة اقريطش الى السواحل المصرية، ووقوعها قبالة شواطئها دفعت بالبحرية الأندلسية للإنتقال اليها واتخاذها موطنا.

أعود لأذكر بان هذه الصحوة التى مهدت لها العديد من العمليات البحرية التى كان يقوم بها بعض المغامرين من أفارقة وأندلسيين، بالإضافة الى جهاد المرابطين والزهاد المقيمين فى مدن سواحل افريقية والأندلس، فضلا عن تنامى قوة هاتين الإمارتين البحرية، مكنت البحرية الإسلامية من احكام سيطرتها على الحوض الغربى للمتوسط الذى أصبح بحق بحيرة إسلامية. وقد يختلف الباحثون حول تحديد أهم العوامل التى أدت الى فتح جزيرتى صقلية واقريطش فى هذه المرحلة بالذات، ولكنهم يكادون يجمعون على ان تنامى الأعمال والتجهيزات البحرية فى غربى المتوسط من ناحية، وانضمام أوفيموس للأغالبة وانشغال البيزنطيين بمشاكلهم الداخلية من ناحية أخرى لم تساهم فى فتح هذه الجزر فحسب، بل أكدت تبعية الحوض الغربى للنفوذ العربي. إنه من خلال هذه السيادة، ومن خلال هذا التطور

1- فعلى الرغم من ان المصادر تفيد بان الجيش الذى قام بفتح صقلية كان"من أشراف إفريقية من المغرب والجند من البربر والأندلسيون والأفارقة وأهل العلم والبصائر"ولكن بروفنسال يتجاهل هذه النصوص ويزعم بانه لا وجود لهذا التعاون، اما عن التواجد الأندلسى فى هذه الحملة فسببه القمع الذى جد بضواحى قرطبة! انظر:

L. Provencal, Histoire de l,Espagne musulmanne,Paris,1953,160.

الذى شهدته علاقات القوى المطلة على حوض المتوسط فى القرن الثالث للهجرة/التاسع الميلادى سيتم التطرق الآن الى موضوع فتح المسلمين لجزيرة مالطا.

يشير مؤلف قصة مالطا الى ان مجموعة جزرها تحتل"رقعة لا تزيد عن مائة واثنين وعشرين ميلا مربعا، أى ان مساحة جزيرة مالطا وجوزو، وكومينو، وكومينوتو، وفلفلا مجتمعة أصغر من مساحة جزيرة وايت وحدها"[1]. ان هذه الجزيرة يقول مصطفى بازامة"تقع على بعد 93 كيلومترا الى الجنوب من صقلية، و350 كيلومترا الى الشمال من طرابلس، وعلى بعد 288 كيلومترا الى الشمال الشرقى من تونس"[2]. وعلى الرغم من ان التواجد العربى بالجزيرة كان قد تجاوز القرنين على أقل تقدير، فان المعلومات التى تضمنتها المصادر العربية يغلب عليها طابعا التناقض والإقتضاب. فبحكم خلط هذه الأعمال بين أكبر جزر الأرخبيل المسماة مالطا وبين مجموعة الجزر فإنها لم توفق فى تحديد عدد هذه الجزر، ولا فى تحديد مساحاتها. ففى حين يكتفى القزوينى بتحديد طول هذه الجزيرة بنحو ثلاثين ميلا، يذهب الدمشقى الى ان طول الجزيرة يبلغ سبعين ميلا، اما عرضها فهو ثلاثون ميلا[3].

كما ان الإختلاف سيكون أكثر تباينا عند مقارنة المعلومات المتعلقة بموارد هذا الأرخبيل ومصادره الطبيعية. فبريان يقول ان "مصادر مالطا الطبيعية ضئيلة فقيرة، وبدون ان تكون هناك مساعدات خارجية فإن مالطا كقاعدة لا تستطيع ان تظل هناك وسط البحر المتوسط، وقد كان لعجز موارد الجزيرة وانخفاض عدد سكانها أثر كبير فى ظهور عدة خصائص أخرى ميزت طبيعة الحياة فى مالطا، فقد كانت صغيرة فقيرة بالدرجة التىلا تتيح لها ان تكون مركزا لقوة رئيسية، الأمر الذى جعلها هدفا لكل طامح يريد ان يفرض سلطاته على منطقة البحر الأبيض

1- بلويه، بريان، قصة مالطة، نقله الى العربية مصطفى محمد جودة، طرابلس، مكتبة الفرجانى، 1969، 11؛ هذا وتجدر الإشارة الى جزيرة وايت، التى تبلغ مساحتها 147 ميلا مربعا، تقع فى القناة الأنجليزية.

2- بازامة، مصطفى، تاريخ مالطة فى العهد الإسلامى. بيروت، مطبعة دار الكتب، 1971، 19.

3- نقلا عن ميخائيل أمارى، المكتبة العربية الصقلية، بالرمو، 1988، الجزء الأول، 157، 162.

المتوسط"[1]. أما برادفورد، وبعد ان يؤكد علىان الجزيرة كانت ولا تزال تشكو من قلة الموارد الطبيعية، يعود ليذكر بأنها كانت فى القديم خصبة وخضراء، مضيفا/ملمحا الى مساهمة العرب فى إتلاف الأشجار وإندثارها. فأراضيها لم تفقد خصوبتها الا فى الفترة الممتدة ما بين"نهاية الحكم الرومانى، وقدوم فرسان القديس جون فى بداية القرن السادس عشر"[2].

أما الأعمال العربية الأولى فهى تجمع علىأن جزيرة مالطا كانت، بالإضافة الى إمكانياتها الإستراتيجية، عظيمة الخيرات. فالإدريسى يذهب الى القول الى ان جزيرة مالطا"هى جزيرة كبيرة وفيها مرسى مأمون يفتح الى الشرق وفيها مدينة، وهى كثيرة المراعى والغنم والثمار والعسل الكثير"[3]. أما نص القزوينى فهو أكثر أهمية إذ يفيد بأن إقتصاد/خيرات الجزيرة لم تنضب خلال التواجد العربى الذى استمر وحتى منتصف القرن الخامس للهجرة. ففى هذا النص يذكر القزوينى بأن جزيرة مالطا"عظيمة الخيرات كثيرة البركات، طولها نحو ثلاثين ميلا وهى آهلة وبها مدن وقرى وأشجار وأثمار، غزاها الروم بعد الأربعين والأربعمائة"[4].

أمام هذه المعلومات المقتضبة والمتضاربة فى آن واحد كيف يمكن للباحث ان يخوض غمار هذه الدراسة، وعلى أية معلومة سوف يستند؟فى الحقيقة، ان غياب الوثيقة تارة وصمتها على العديد من التفاصيل تارة أخرى، هى إحدى المشاكل التى تواجه الباحث، بل وتقلق مضجعه؛ ولكنها فى ذات الوقت تعد بمثابة الرحمة التى تنزل على غير المتخصص. فبغياب الوثيقة/المعلومة الأكيدة يتحرر غير المتخصص من قيود الإلتزام العلمى، ولا يرى تبعا لذلك حرجا من ابداء الرأى، بل ومن الخلط أحيانا بين المصطلحات والمفاهيم. وحيث إن تاريخ مالطا لم يسترع انتباه الأعمال العربية الأولى، فإن المعطيات المقتضبة التى تضمنتها هذه المصادر، والخالية فى ذات الوقت من أية أحكام مسبقة، تجعل باب الإجتهاد مفتوحا، لأى باحث، على مصراعيه. وحيث إن الأعمال الغربية اكتفت عند تناولها لهذه الجزيرة

1- بلويه، قصة مالطة، 13-14.

2-G. Bradford,Mediterranean portrait of a sea,280.

3- نقلا عن أمارى، مكتبة صقلية العربية، الجزء الأول، 38.

4- المصدر نفسه، 157.

بإشارات مقتضبة ذكرت فى سياق حديثها عن تاريخ دول المتوسط، فإنه غاب عن جلها الجهد الأكاديمى، وظهرت فى شكل هو أقرب الى شكل الكتيبات السياحية.

عليه فإننى أنبه ومنذ البداية الى ان هذه الدراسة لا تزعم بأى حال من الأحوال كشف النقاب عن معطيات لم يسبق استخدامها من قبل، ولا عن تفاسير حديثة/بديلة. إن هذا العمل المتواضع يريد ان يؤكد، ومن خلال دراسة الفتح الإسلامى لجزيرة مالطا، على ان جملة من العوامل والقوانين كانت تحكم علاقات ضفتى المتوسط وجزره، وان أية دراسة تتجاهل هذا الجانب هى دراسة قصيرة النظر، وناقصة. هذا من ناحية، من ناحية أخرى ان اعادة النظر فى آثار المسلمين فى حوض المتوسط، مثلا، لا يقصد به الهروب من قضايا هذا العصر والإرتماء/الحنين الى ماضى المسلمين المجيد؛ فالعمل على إبراز خصوصية هذا الحوض هو جهد أريد به رتق بعض الفتق الذى تسبب فيه تجاهل أعمالنا العربية الحديثة لهذا المجال الحيوى. فتجاهل الأعمال هذه تسبب بدوره فى ظهور سياسة عربية "أللا متوسطية"، عاجزة عن اسماع صوتهاحتى الى أقرب الجزر اليها. كما ان هذه الدراسةلا تسعى الى نقد وادانة الأعمال الغربية التى تولت مهمة ابراز تبعية بلدان الضفة الجنوبية الى بلدان الضفة الشمالية فحسب، بل تهدف أيضا الى لفت نظر الباحثين العرب خاصة الى ضرورة دراسةهذا الحوض من منطلق شمولى لا تكون مهمته التقليل من مساهمة السواحل الشمالية، ولا المبالغة فى حجم المساهمات الحضارية لضفته الجنوبية.

وحيث إن المجال هنا لا يتسع للحديث عن مساهمات ضفتى المتوسط من منطلق شمولى، وحيث إن الضفة الشمالية كانت قد نالت نصيب الأسد من الرعاية والإهتمام، فإننى رأيت ان تقتصر ملاحظاتى على مساهمات السواحل الجنوبية لهذا الحوض. والأهمية التى أوليها شخصيا لهذه الملاحظات لا تكمن فى توكيدها دور الضفة الجنوبية الإيجابى فحسب، بل تكمن أيضا فى إبراز دور العرب أيضا فى المحافظة على الخصوصية التى ميزت عبر التاريخ علاقات ضفتى المتوسط. فوعى العرب بتجانس هاتين الضفتين مكنهم، على سبيل المثال، من نشر العديد من المحاصيل الزراعية على سواحل ضفة المتوسط الشمالية. واذا ما اقتصر نشاط

الضفتين الزراعى فى العصر الرومانى على زراعة الحبوب، ورعاية الزيتون، فإن العرب، وبالإضافة الى اهتمامهم بهاتين الغلتين، فقد أدخلوا العديد من الغلات الجديدة الى شرقى المتوسط والى صقلية، ومالطا والأندلس، ودول /مناطق أوربية غربية أخرى[1] . إن اقدام العرب على نقل هذه التقنيات الزراعية وغيرها لم يعكس وعيهم بتجانس هذا الحوض الطبيعى فحسب، بل يؤكد فى ذات الوقت حرصهم على ضرورة استمرار اندماج المناطق المطلة علىالحوض مع اقتصاد البحر الأبيض المتوسط.

والجدير بالملاحظة، فإن التأثير العربى الإسلامى لم يقتصر على المناطق التى خضعت لنفوذ سلطات الإسلام الرسمية والمباشرة. فكثير من المناطق التى تقع على ساحل فرنسا، وعلى سواحل جنوب ايطاليا، بل وفى سويسرا أيضا، كانت، ونتيجة وقوع جلها فى أيدى بعض المغامرين المسلمين، قد تأثرت بأهم عناصر الحضارة العربية الإسلامية. فالشواهد الإقتصادية تفيد على سبيل المثال بأن العرب الذين استقروا فى هذه المناطق كان لهم الفضل فى إدخال العديد من المحاصيل الزراعية، نخص بالذكر منها الحنطة السوداء فى منطقة (Var) بفرنسا؛ كما ان التأثير العربى كان قد تمثل فى إقدام سكان (Saas Valley) بسويسرا علىإستهلاك لحم الخروف، والإمتناع عن تربية الخنازير؛ هذا وقد لاحظ صاحب الدراسة السيد (Wenner) كيف ان سكان هذه المنطقة لا يكتفون باستهلاك لحم الخروف فحسب، بل يقومون أيضا بذبح الخراف على طريقة سكان المغرب.

وأهمية هذه الملاحظات الأخيرة تكمن فى تفنيدها الزعم السائد ولفترة قريبة بين الباحثين الغربيين، والقائل بأن التواجد العربى كان قد تسبب فى تحطيم وحدة المتوسط، وفى انه كان تواجدا عرضيا تسبب فى هدم المناطق التى حل بها وتخريبها. وحتى نؤكد زيف هذا الوهم رأيت ان استشهد مرة أخرى بالأمثلة التى يسوقها (Wenner) . فبعد ان يعدد الشواهد التى تقدم الدليل الواضح على ايجابيات التواجد العربى فى هذه المناطق، يدعم مقترحاته ببعض الشواهد اللغوية التى تفيد بدورها على ان التأثير العربى لم يكن تاثيرا عابرا وسطحيا، بل كان تأثيرا

1-A. M. Watson, Agricultural innovation in the early islamic world. The diffusion of crops and farming techniques. Cambridge University Press,1983

مستمرا و لم ينته برحيل العرب على المنطقة. فسكان الوادى بسويسرا يطلقون على احد مصادر المياه، العين لفظ (Alp Aier)؛ هذا ويطلقون على جابى الضرائب (Gstein-Gabi)؛ أما أنثى الأسد مع أشبالها فهى تدعى، نقلا عن اللفظ العربى (Mischabel)؛ والقرية (al-magel) هى الأخرى تسمية من أصل عربى، اذ أنها تعنى المحل[1]. والشواهد التى تضمنتها هذه الدراسة، على بساطتها، فإننى أراها فى غاية الأهمية اذ انها تلقى بعض الضوء على دور العرب الإيجابى/الحضارى فى مناطق لم تشتهر بتبعيتها المباشرة للنفوذ العربى؛ وبذلك فهى تعد خير فاتحة لدراسات تثرى هذا التوجه فى المستقبل. وملاحظات الأستاذين (Watson-Wenner) فى حقيقة الامر موحية جدا، ولكن من البديهى ان لا تفض هكذا قضايا فى هذه العجالة. لذلك سأكتفى بمقترحاتهما لأعود للحديث عن جزيرة مالطا.

يذهب العديد من الباحثين الى أسم جزيرة مالطا مشتق من مالات (Malat)، وهو لفظ يعنى، فى الفينيقية، المرفأ أو الملجأ؛ ويحتمل ان صحت التسمية ان يكون علما على المكان الذى يعرف الآن باسم بيرجو (Birgu)[2]. أما الإغريق فقد أطلقوا على هذه الجزيرة إسم ملتا (Melita)، وهو إسم مشتق من ميلى (Meli) الإغريقى والذى يعنى العسل. مع ذلك يسترسل (Bradford) فإن هذه التسمية الإغريقية لا تعدو ان تكون من أصل فينيقى قرنها الإغريق مع أكثر الالفاظ معرفة لديهم[3].

أما المصادر العربية فإنها، وعلى غير عادتها، لم تبحث فى أصل التسمية، بل ان بعضها، ياقوت، اعتقد بانها من جزر الأندلس[4]. هذا فيما يتعلق بالتسمية، أما بخصوص فتح المسلمين لهذه الجزيرة فإن المعلومات التى تضمنتها المصادر العربية لا تفى بالغرض، ولكن الباحث ملزم بإستشارتها. يقول ابن الاثير"لما قتل خفاجة استعجل الناس ابنه محمدا، وأقره محمد بن أحمد بن الأغلب صاحب القيروان على ولايته، فسير جيشا فى سنة ست وخمسين ومائتين الى مالطة، وكان الروم

1-M. Wenner"The arab/muslim presence,66.

2- بازامة، تاريخ مالطة، 23.

3-Bradford,Mediterranean portrait of a sea,278.

4- الحموى، شهاب الدين ياقوت. معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1979، الجزء الخامس، 43.

يحاصرونها، فلما سمع الروم بمسيرهم اليها رحلوا عنهـا"[1]. كمـا أورد النويـرى فـى نهاية الارب تاريخا استشف منه البعض ان تاريخ فتح الجزيرة كان كان سنة 256ه. ولكن الأستاذ الطالبى يخلص الى القول بأن النويـرى لم يحـدد أى تـاريخ وكـل مـا ذكره هو ان جزيرة مالطـا تم فتحهـا فـى عهـد محمـد الثـانى ابـن الغرانيـق (250-261هـ)[2]. أما ابن خلدون فهو يذهب الى ان تاريخ أول عملية انتهت الى فتح مالطا كانت سنة 255هـ.

هذا ما تورده، وبإختصار شديد النصوص العربية الأولى فى هـذا الموضـوع، وقـد قام الأستاذ بازامة بالتعليق على بعضها مؤكدا على ان تاريخ فتح مالطا لا يمكن ان يكون فى هذا التاريخ المتأخر. ففى البداية يعلق بازامة على روايـة ابـن الأثـير قـائلا بأنهـا"لا تحـدد سـنة 256 للهجـرة كعـام فتحهـا، وإنمـا تذكـر ان ابـن خفاجـة قـد سيرجيشا بحريا لفك حصارالروم عنهاوهذا يعنـى أنهـا كـانت فـى غـير يـد الـروم آنذاك، بل ويؤكد فتح المسلمين لها وسيطرتهم عليها واستقرار جندهم بها قبل هذا التـاريخ"[3]. إن فتـح جزيـرة مالطـا، يسترسـل بازامـةكان قبـل هـذا التـاريخ. فالجزر"المالطية تقع فى منتصف الطريق بين إفريقية وصقلية التى إفتتحوا بعضها سنة 212، وتشكل بهذا عقبة فى الطريق، وتمثل شوكة فى خطوط مواصلاتهم البحريـة بين الأرضين؛ فهل من المعقول أنهم أهملوا شأنها وتركوها ملجأ حصينا للأسطول البيزنطى ومرفأ تنطلق منه سفنه للهجوم عليهم والحاق الأذى بهم كلما عن ذلـك؟ واذا ما كان الأمر كذلك فأية حكمة للأغالبة فى هذا؟وما هو المبرر لـه؟ أيكونـون علىغير علم بوجودها وقد علموا بأمر صقليـة الواقعـة خلفهـا"[4]. وبعـد ان يسـجل بازامة تساؤلاته هذه والتى كانت ستمثل، لو انه أجاب عليها أو على بعضها علـى الأقـل، إضافـة جـادة لهـذا الموضـوع، يعـود لينتقـى رأيـين لا يضيفـان أى جديـد للموضوع، بل يؤكدان وجهة نظره. فالرأى الأول والذى ينقله عن أرسلان يقترح بأن مالطا "دخلت فى حوزة المسلمين قبل سنة 800م، لان عدم ذكر تـاريخ معـين لفتحها أول مرة... يوحى بأن ذلـك الفتـح قـد حـدث فـى فـترة مـا سـابقة لفتـح

1- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، المجلد السابع، 109.
2- الطالبى، محمد، الدولة الأغلبية، حاشية 496، 520.
3- بازامة، مصطفى، تاريخ مالطة فى العهد الإسلامى، 56.
4- المرجع نفسه، 58.

صقلية، أي قبل سنة 827"[1]؛ وعلى الرغم من ان هذا الراى لا يستند على أية معطيات مادية/وثائقية ملموسة، فإن بازامة لا يكتفى بتبنيه، بل ينقل عن باحث غربى (Liviviani) يؤكد هو الآخر نفس الزعم. فسكان مالطا، يقول هذا الباحث" لم يخضعوا للحكم العربى مدة 220 سنة فقط، بل لقد سبقت هذه الفترة 218 سنة أخرى من الغارات والإحتلالات المؤقتة أو الممتدة الزمن... إننا لو طرحنا 218 سنة من 870 لأنتهينا الى عام 652 للميلادأى الى السنة التى هاجم فيها أسطول الشام السواحل الإيطالية لأول مرة"[2]. وبعد ان يقرر بازامة، استنادا على ما استشف من رواية ابن الأثير بان فتح الجزيرة لا بد ان يكون قبل سنة 256ه، يعود ليتساءل عما اذا كانت مالطا قد فتحت صلحا أو عنوة؟وإجابته على هذا السؤال أراها تحمل معول هدم للإستنتاجات التى تبناها؛ فعدم دراية بازامة بوضع الجزيرة"القانونى"يكمن فى ندرة المعلومات ذات العلاقة، اذ ليس"من وسيلة لمعرفة هذا الأمرإلا إذا أحطنا بأخبار فتحها لأول مرة، وهو ما نجهله حتى الآن"[3].

وقبل التوقف عند هذه الآراء ومحاولة الرد عليها رأيت ان أعيد الى الأذهان ملاحظة كنت قد ذكرتها فى مستهل هذه الدراسة. ان الملاحظة المعنية تتعلق بمبدأ تجاهل الباحثين، عند تناولهم موضوع الفتح الإسلامى لجزر البحر الأبيض المتوسط، لعلاقة الفتوحات البرية بالفتوحات البحرية. ان هذا التقصير جعل هذه الأعمال لا توفق فى تفسير العديد من الظواهر، خاصة واننا نتعامل مع حوادث نجهل الكثير من جزئياتها. فاستراتيجية الفتح الإسلامى كانت تخضع لعدة عوامل، ولعل من أهمها، قدرة القيادة العربية على استيعاب العديد من القوانين التى كانت تحكم العالم فىالقرن السابع الميلادى. فدراية هذه القيادة بهذه الخاصية كانت من بين الأسباب التى مكنتهم من تبنى سياسة يراعى فيها، من ناحية تزامن العمليات البرية بالعمليات البحرية، والإعتماد من ناحية أخرى على ظاهرة التبعية التى كانت تتحكم فى علاقات الدول/المراكز، بالدول /الأطراف؛ وحتى يقف القارئ على

1- بازامة، تاريخ مالطا، 59.
2- المرجع نفسه، 60.
3- المرجع نفسه، 60.

طبيعة هـذه الإستراتيجية وعلى خلفيتها رأيت ان أقدم فى هذا السياق بعض الشواهد ذات العلاقة بالشق الثانى لهذه الإستراتيجية.

فالمصادر تجمع على ان علاقة مصر الوثيقة بالشام تعود الىمرحلة موغلة فى القدم؛ والمتمعن فى التفاصيل التى تقترحها هذه المصادر يرى كيف ان الشام كانت وفى فترات طويلة من تاريخها تأتمر بأوامر مصر. ان هذه العلاقة، علاقة تبعية الشام لمصر سهلت فى عديد المرات للمسيطر على مصر الإستحواذ على بلاد الشام. وحتى لا أطيل على القارئ سأكتفى بروايتين اسلاميتين تظهران هذه العلاقة. ففى إحدى روايات ابن عبد الحكم المتعلقة بالفتح الإسلامى لمصر يشير الى ان الخليفة عمر بن الخطاب كتب الى الأمير عمرو ابن العاص بعد ما فتح الشام"أن أندب الناس الى المسار معك الى مصر، فمن خف معك فسر به"[1]. هذا وينقل البلاذرى رواية شبيهة برواية ابن عبد الحكم يذكر فيها ان" عمر كتب الىعمرو بن العاص يأمره بالشخوص الى مصر، فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية"[2]. أى ان دراية الخليفة بأهمية مصر/المركز بالنسبة لبلاد الشام هى التى جعلته يأمر عمرو بن العاص بمباشرة فتح مصر قبل الإنتهاء من فتح الشام، اذ بسقوط المركز سوف يسقط الطرف لا محالة.

كما أنه بالإمكان الإستشهاد بحادثة أخرى تزكى هذا المقترح. فسهولة الفتح الإسلامى لبرقة لم يكن بسبب قلة موارد هذه المنطقة، ولا بسبب صغر حجم الحامية البيزنطية فحسب، بل كان أيضا بسبب تبعية هذه المنطقة لمصر. فالمتصفح للمصادر الكلاسيكية يرى كيف ان حكام برقة، وكلما دعت الحاجة يلجأون الى مصر، ولا يمانعون فى الدخول تحت سيطرتها المباشرة. فعندما بالغ القورينيون فى الإساءة لليبيين توجه أحدهم"واسمه أديكران الى مصر طلبا للنجدة"[3]. وفى العهد البطلمى (329-30ق. م) تفيد المراجع بأن بطليموس الأول (323-283ق. م) كان قد تدخل، غداة إعتلائه كرسى مصر، لفض مشاكل برقة وأقاليمها ووضعها فيما

1- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، الجزائر، 1961، 83.
2- البلاذرى، فتوح البلدان، 210.
3- الجرارى، محمد الطاهر، "الغاية من تأسيس قورينا"فى مجلة البحوث التاريخية. السنة الثامنة، العدد الأول، 1986، 12.

بعد تحت سيطرته المباشرة. وقبل ان تصبح مصر مقاطعة/ولاية رومانية، قامت روما بإحتلال المقاطعات/الأطراف التى كانت تساهم فى تموين مصر. فبرقة وأقاليمها التى كانت من أهم مخازن الغلال فى العالم القديم، وموطنا من أهم مواطن تربية الخيول، تمت السيطرة عليهم حوالى سنة 74ق. م؛ وحتى تحرم مصر نهائيا من إمكانية الحصول على مساندة برقة الإقتصادية والبشرية، ألحقت روما برقة بجزيرة كريت. وإقدام روما على هذا الإجراء تسبب فى إثارة سكان برقة الذين رفضوا الإنفصال عن مصر. لذلك فإن منطقة برقة لم تسترد أمنها وإستقرارها إلا فى القرن الرابع الميلادى، أى بعد ان ألحقت من جديد بمصر. وبعد سقوط روما فى القرن الخامس لم تفصل الإمبراطورية الشرقية برقة عن مصر، أوتعمل على ضم برقة الى ولاية إيطاليا التى كانت تشمل بلاد المغرب[1].

من خلال هذه الإستشهادات السريعة، والتى أردت بها توضيح جزء من طبيعة العلاقات المصرية الليبية منذ العصور الأولى وحتى العصر البيزنطى، حاولت ان انبه الى وجود علاقة متميزة كانت تربط برقة بمصر، علاقة تقوم أساسا على تبعية الطرف، برقة بالمركز، مصر. وهذه العلاقة المبنية على تبعية الأطراف للمراكز لم تكن بخافية عن الفاتحين المسلمين. فجميعنا يعلم ان الفاتحين المسلمين لم يولوا المدن والقرى الصغيرة كبير إهتمام، بل إهتموا بالمدن الكبرى والتى بسقوطها يصعب على المدن الصغيرة وقراها المقاومة. ففتح مصر مثلا إقتصر على إستسلام بعض الحصون، وسقوط مدينة الإسكندرية. فهذه المدينة كانت تمثل عندئذ مركز مصر، والذى بإنتهائه إنتهى أمر الروم بمصر، وإنقطع أملهم فى إسترداد الشام. وهذا ملك الروم يقول"لئن ظهرت العرب على الإسكندرية ان ذلك إنقطاع ملك الروم وهلاكهم.... ولما كان عيد الروم بالإسكندرية، حيث غلبت العرب على الشام قال الملك: لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وإنقطع ملكها"[2].

1- المعلومات الواردة فى هذه الفقرة مأخوذة عن الأستاذين:
R. C. C. Law,and S. Donadoni. 1-"North Africa in the Hellenistic and Roman periods"in the Cambridge history of Africa,1978,165;2-"Egypt under Roman domination"in general history of Africa. Unesco,1981,208.

2- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، 111-112.

وحيث إن برقة، وكما سبقت الإشارة، كانت تتأثر سلبا وإيجابا بما يدور في مصر فإن فتحها الذى تميز بالسهولة، وكما تجمع على ذلك المصادر، يكمن بالدرجة الأولى فى تبعية الطرف برقة، بالمركزمصر. وتبعية برقة لمصر بالإمكان التأكد منها وذلك من خلال الأحداث التى جدت عقب فتح عمرو بن العاص لمصر. فعلى الرغم من ان ابن العاص لم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى فتح برقة، ورغم أنه لم يتلق العون من مركز الخلافة طوال إقامته بمصر، فإنه لم يقم وزنا للتواجد البيزنطى فى برقة، اذ تخبرنا المصادر بأنه توجه الى فتحها مباشرة بعد سقوط مصر. وإقدام عمرو بن العاص على هذا الأمر فى خلافة الفاروق الذى كان يتابع كل صغيرة وكبيرة من شئون الفتح، هو خير دليل على يقينه من ان سقوط مصر سينتج عنه سقوط برقة. ودراية القيادة العربية، فى الجزيرة وفى مصر أيضا، بهذه الظاهرة هو أمر تكاد تنطق به المصادر العربية الأولى.

فبعد ان أتم عمرو بن العاص فتح برقة إتجه الى طرابلس، ومن غير ان يستأذن الخليفة!إلا ان ظاهرة تبادل الرسائل بين ابن العاص والخليفة عمر ظهرت من جديد حين عزم ابن العاص على فتح إفريقية احدى مراكز المغرب الرئيسية. فإبن عبد الحكم يخبرنا بأن عمرو بن العاص وقبل ان يوجه الى إفريقية كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب"ان الله فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين ان يغزوها ويفتحها الله علىيديه فعل.... فكتب اليه عمر لا، إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت"[1]. واذا قارنا هذه الرواية برواية أخرى لتبين لنا بأن عزوف عمرو بن العاص عن فتح إفريقية كان بسبب إمكانيات هذه الأخيرة والتى تجعل عملية فتحها لا تتم إلا بتجهيز خاص كالذى أعد من قبل لفتح مصر. فإبن عذارى يذكر بأن الأمير عمرو، وبعد ان أتم فتح مدينة طرابلس"كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح، وان ليس أمامه الا بلاد إفريقية، وملوكها كثير وأهلها فى عدد عظيم، وأكثر ركوبهم الخيل"[2]. ولا أعتقد بأن هذا النص فى حاجة الى توضيح، فهو يؤكد على ان فتح طرابلس، الطرف

1- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، 232.
2- ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الأول، 8.

بالنسبة لإفريقية، لم يمكن جيش عمرو بن العاص من التوغل فى إفريقية وفتحها وهى بالإمكانيات التى تحددها رسالته الى الخليفة ابن الخطاب. ففتح مصر/المركز كان قد تطلب إرسال الإمدادات من المدينة، أما فتح برقة/الطرف فلم يكن فى حاجة لمدد، كذلك الأمر بالنسبة لفتح طرابلس؛ أما قرار فتح إفريقية فكان فى حاجة لرأى الخليفة ولمساندته.

وظاهرة التبعية هذه، والتى تم إستغلالها من قبل القيادة العربية، لم تقتصر فى حقيقة الأمر على علاقة الشام بمصر، أو هذه الأخيرة بالأراضى الليبية فحسب، بل إنها شملت، بالإضافة الى منطقتى طرابلس وإفريقية، مناطق أخرى أخص بالذكر منها المغرب الأقصى والاندلس؛ هذا وتجدر الإشارة الى إن الهدف من ذكر بعض هذه الشواهد لم يقصد به إبراز عامل التبعية كأحد العناصر التى إستخدمها العرب فى عمليات الفتح هذه فحسب، بل ولإثبات الفكرة البسيطة التالية وهى ان الإستراتيجية العربية البحرية كانت تخضع الى نفس السياسة، أى الى إستغلال ظاهرة التبعية فى السيطرة على بعض سواحل المتوسط وجزره.

كنت قد ألمحت كيف ان القيادة العربية كانت قد باشرت ركوب البحر منذ بدايات الفتح الإسلامى. والجدير بالتنويه هو ان القيادة العربية كانت ترى فى إكتمال الفتح الإسلامى مرتبط بفتح بعض الجزر، خاصة تلك التى تقع قبالة مناطق نفوذهم. فمعاوية بن أبى سفيان، والذى كان يلح على الخليفة بضرورة فتح جزيرة قبرص التى يسمع أهالى إحدى قرى حمص نباح كلابهم وصياح دجاجهم، كان قد نسق مع والى مصر عبد الله بن سعد. يقول ابن الأثير"فلما كان زمن عثمان كتب اليه معاوية يستأذنه فيغزو البحر مرارا، فأجابه عثمان بآخره الى ذلك وقال له: لا تنتخب الناس ولا يقرع بينهم، خيرهم فمن إختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه.... وسار المسلمون من الشام الى قبرص، وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها"[1]. وحتى تكتمل سيطرة العرب علىالحوض الشرقى للمتوسط، لم يكتف معاوية بن أبى سفيان بغزو جزره (الأطراف) بل سعى الى

1- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، المجلد الثالث، 96.

غزو القسطنطينية، المركز نفسه. فبعد ان توالت الحملات العربية على جزيرتى قبرص ورودس، قررت القيادة العربية فتح جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية[1].

وعجز المسلمين عن السيطرة المستمرة على هاتين الجزيرتين (قبرص ورودس) بالذات لا يكمن كما قد يتوهم البعض فىإستخدام البيزنطيين للنار الإغريقية فحسب، بل يكمن أيضا فى إحكام البيزنطيين قبضتهم على الشواطئ التى تقع قبالتها هذه الجزر، دون ان نغفل عن الحقيقة التى أكثرت من التنويه بهاوهى ان هذه الجزر الى السواحل الشمالية أقرب. لذلك، وعلى الرغم من ان بدايات فتح جزيرة قبرص كانت قد استهلت قبل سنة 28ه، فإن وقوع هذه الجزيرة تحت تأثيرات بيزنطية ولقرون عديدة، فضلا عن إستمرار القوى البيزنطية فى السيطرة على سواحل الحوض الشرقى للمتوسط، تجاذبت/تقاسمت القوتان العربية والبيزنطية مصير وخيرات جزيرة قبرص. يقول البلاذرى"ان قبرص فتحت، فتركوا على حالهم، وصولحوا على أربعة عشر ألف دينار، سبعة آلاف للمسلمين، وسبعة آلاف للروم"[2].

وإذا ما شبهت المصادر الأولى أمر قبرص بأمر عربسوس[3]. فإننى أميل الىالإعتقاد بأن وضع مالطا لا يختلف بدوره عن وضع قبرص. فعلى الرغم من قرب هذه الأخيرة من السواحل الشامية الا ان القيادة العربية، وبعد ان تأكد لها إستحالة فتح القسطنطينية، المركز الذى تأتمر بأمره العديد من الأطراف، بما فى ذلك جزيرة قبرص، قبلت، وهى الدولة الكبرى، بأن تقتسم خيرات هذه الجزيرة مع البيزنطيين. وخضوع قبرص للدولة البيزنطية لا يعود الى تفاوت الإمكانيات البحرية بين الدولتين المتنازعتين، بل يعود الى ظاهرة التجاذب التى أكدتها عوامل طبيعية لعل من أبرزها، ضمن عوامل أخرى، حركة الرياح والتيارات المائية . فالتنقل بين

1- الحموى، معجم البلدان، 158.
2- البلاذرى، فتوح البلدان، 158.
3- يذكرالبلاذرى بأن أمر قبرص هو كأمر عربسوس. وهذه الأخيرة، يقول صاحب الفتوح هى مدينة تفصل الروم عن المسلمين ويخبر أهلها العدو بعورات المسلمين، ولا يظهرون للمسلمين عورات عدوهم، فأمر الخليفة عمر بأن يجلوا عن هذه المدينة وان تخرب؛ غير ان قرب هذه المدينة من الأراضى البيزنطية جعلها تشارك قبرص نفس المصير. فتوح البلدان، 157-158.

ضفتى المتوسط، أى شمالا-جنوبا، كان وكما أكدت ذلك دراسة (Fulford)، أيسر بكثير من عملية التنقل بين الشرق والغرب. وهذا فى إعتقادى ما يفسر جزئيا تنسيق معاوية بن أبى سفيان مع أمير مصر إبن أبى السرح من أجل فتح قبرص؛ كما يمكن ان نبرهن على أهمية حركة الرياح (شمال-جنوب) ودورها فى فتح المناطق المقابلة من خلال عملية فتح جزيرة كريت؛ فهذه الأخيرة فتحت بدورها بجيش إنطلق من الإسكندرية. فسهولة التنقل إذا بين الشمال والجنوب، والتى تولدت عنها، وبمرور الوقت، ظاهرة التبعية كانت، بالإضافة الى عزوف دولة بنى العباس عن مجابهة البيزنطيين فى البحر، وراء إسترجاع بيزنطة لبعض جزر الحوض الشرقى للمتوسط، ودعم نفوذها فى الحوض الغربى.

لذلك فإن تفاصيل فتح جزيرة مالطا حتى وإن بدت فى ظاهرها مغايرة للتفاصيل التىتناقلتها المصادر بخصوص فتح جزر الحوض الشرقى، فان المتمعن فى مراحل فتح هذه الجزيرة يخلص أولا الى انها هى الأخرى الى الأراضى الأيطالية أقرب؛ ويخلص ثانيا الى انها كانت تابعة لجزيرة صقلية. فمصير مالطا، وكما تقترح الموسوعة البريطانية، كان وحتى القرن السادس عشر مقترنا بمصير جزيرة صقلية[1]. وإرتباط مصير مالطا وتبعيتها لصقلية، يقول بريان، يعود فى حقيقة الأمر الى العصر الحجرى. فالمعروف"ان مجموعات الإنسان الأولى التى سكنت مالطة، إنتقلت اليها من جزيرة صقلية. فقد لوحظ مدى التشابه بين مرحلة الحضارة المبكرة للعصر الحجرى فى صقلية وبين ما يوجد فى فى غاردلم (ghar dalam) فى مالطة"[2]. وحيث إن أهالى مالطا كانوا يتألفون، فى الألفية الأولى قبل الميلاد، أساسا من السيكان (Sicanes) والسيكول (Sicules) والإليم (Les Elymes) والفينيقيين[3]، فإنه من المنطقى ان يتكون سكان مالطا، فى مرحلة الفتوحات الإسلامية، من نفس العناصر تقريبا. هذا وإن لم تحدد المراجع نسب هذه العناصر السكانية فى الجزيرة، ولكن التغيرات التى شهدتها الجزيرة يستشف منها ان نسبة العنصر الفينيقى كانت أكبرمن بقية العناصر. فبالإضافة الى ان الفينيقيين كانوا

1- Encyclopedia Britanica. Malta,391.

2- بريان، قصة مالطة، 25.

3- J. Hure,Histoire de la Sicile,16.

يجوبون هذه المناطق منذ الألفية الأولى قبل الميلاد، أى قرنان على الأقل قبل دخول الإغريق الى الجزء الغربى من حوض المتوسط، فإن المراجع تسجل معلومة أراها فى غاية الأهمية. فهذه المعلومة تفيد بأن الفينيقيين أنشأوا مستوطنات لهم فى تونس ومالطا فى القرن الثامن والسابع قبل الميلاد.[1] وهذه الإشارة التى أفادت بأن جزيرة مالطا أصبحت، وبعد ان سيطر الفينيقيون على تونس، تابعة الى قرطاج، حقيقة تؤكدها المراجع. فعلى الرغم من ان تردد الإغريق على جزيرتى صقلية ومالطا تزامن وقيام المستوطنات الفينيقية فى جزيرة مالطا، فإن التأثير الإغريقى لم يكن ذا أهمية"فقد كانت الجزيرة فى قبضة قرطاجنة، واستطاعت الحضارة القرطاجنية ان تثبت أقدامها"[2]. وما ينسحب على الإغريق، فإنه ينسحب والى حد كبير على الرومان. فعلى الرغم من ان روما كانت قد تمكنت من ضم جزيرة مالطا خلال الحروب البونيقية الثانية (218-201ق. م) فإنه من "المشكوك فيه ان الجزيرة قد تأثرت بحضارة الرومان..... ولقد وصف ديودورس مالطة بعد مائة وخمسين عاما من بداية الحكم الرومانى، وصفها بأنها بربرية، ويقصد بهذا المعنى ان المالطيين لم يكونوا يتكلمون اللغة اللاتينية أو اليونانية، ونعتقد ان مالطة كانت تتكلم لهجة فينيقية"[3]. وتشبث سكان مالطا بالثقافة الفينيقية خلال التواجد الرومانى/البيزنطى، وحتى تاريخ فتح المسلمين لها فى االقرن التاسع الميلادى يفسر سرعة انتشاراللغة العربيةاذ"أنه ليس ثمة خلاف بين اللغة الفينيقية والعربية"[4].

إن الملاحظات السابقة والمتعلقة بالتأثير الإيجابى للوجود الفينيقى فى مالطا لها أهميتها، اذ أنها أفصحت عن الحقيقة التالية، وهى ان الإنتقال/التنقل بين ضفتى المتوسط كان يتم من خلال طريق الجزر. فبهزيمة القرطاجنيين أصبحت جزيرتا صقلية ومالطا تابعتين للدولة الرومانية. وحين قرر الوندال دخول إيطاليا من إفريقية، توقفوا فى جزيرتى مالطا وصقلية. ان تجاذب الضفتين الى بعضهما البعض، وانجذابهما نحوجزر هذا الحوض، كانت تلزم القوى المسيطرة على إحدى الضفتين بالتطلع نحو الضفة المقابلة والسير اليها عبر طريق الجزر، ولا غيره لتحقيق

1- بريان، قصة مالطة، 33.
2- المرجع نفسه، 34.
3- المرجع نفسه، 34.
4- المرجع نفسه، 34.

هدفها. ولست فى حاجة للتذكير بأن عجز هانيبال عن إنزال الهزيمة بروما يكمن بالدرجة الأولى فى فشله فى السيطرة على هذه الجزر التى كانت تستخدم كمراحل تنطلق منها القوات الغازية باتجاه الشمال أو باتجاه الجنوب. لذلك فإن القيادة العربية الواعية بطبيعة العلاقة التى تحكم الضفتين كان عليها ان تضع ومنذ البداية خطة غايتها السيطرة على الممتلكات البيزنطية البرية والبحرية مستخدمة طريق الواحات للسيطرة على الممالك البرية، وطريق الجزر للسيطرة على الممالك البحرية.

ولكن وإذا ما عجز العرب عن فتح صقلية فى مرحلة فتح المغرب والأندلس، ولأسباب كنت قد ذكرت بعضها، فبماذا نفسرعزوفهم عن فتح جزيرة مالطا وهى المؤهلة لإستقبالهم؟بإختصار شديد، إن جزيرة مالطا، وان كانت أكثر تشبثا بالثقافة/اللغة الفينيقية فإن الجزيرة وبحكم وقوعها، ووقوع منطقتى صقلية وتونس/إفريقية تحت السيطرة الرومانية/البيزنطية ولفترة تجاوزت الثمانية قرون، فإنه أصبح من العسير علىالقيادة العربية ضم هذه الجزيرة بمجرد سيطرتهم على إفريقية. فلقد كان علىالقيادة العربية ان تضع قبل كل شئ حدا للوجود البيزنطى فى صقلية التى تقاسم إفريقية مصير جزيرة مالطا. لذلك، فإننى لا أستبعد قيام البحرية العربية بمهاجمة جزيرة مالطا قبل تاريخ فتحها، ولكن حين تبين لهم بأن فتحها وهى الطرف لا يتم إلا بعد فتح جزيرة صقلية، عزفوا عن فتحها مكتفين بهدنة لا تذكرها المصادر، ولكنها تكاد تنطق بها. فنص ابن الأثير الذى استشف منه بازامة ان الفتح الإسلامى كان قد وقع قبل سنة 256هـ، أفاد بأنه لا وجود لأية حامية بيزنطية بالجزيرة، كما أنه يكاد ينفى وفى نفس الوقت تبعيتها للنفوذ الإسلامى. فالجزيرة وكما يفهم من هذا النص كانت خالية من الحاميات العربية؛ لأننا لو سلمنا بفتحها قبل هذا التاريخ لكان علينا ان نتساءل عن سبب عزوف حامية هذه الجزيرة عن المشاركة فى فتح صقلية التى تقع على بعد 93 كيلومترا فقط الى الشمال من مالطا!فرغم معاداة النظام الأموى بالأندلس للأغالبة/ممثلوا النظام العباسى بإفريقية، فإنهما لم يترددا فى التنسيق من أجل السيطرة على جزيرة صقلية.

بناء عليه، فإننى أميل للإعتقاد بأن الوضع الذى كانت عليه جزيرة مالطا غداة انتصاب راية العروبة والإسلام بإفريقية، لم يكن مختلفا، حتى وان التزمت المصادر الصمت، عن الوضع الذى كانت عليه جزيرة قبرص. فأغلب الظن ان القيادتين العربية والبيزنطية كانتا قد اتفقتا على ان تكون هذه الجزيرة بمثابة الجزيرة الحاجزة، على غرار الدولة الحاجزة التى تحول دون تصادمهما؛ ولكن انفجار الموقف من جديد بين أمراء بنى الأغلب ووجهاء صقلية جعل القوة البيزنطية تسعى الى عزل العرب بصقلية من خلال إحتلالها جزيرة مالطا. ولدراية عرب صقلية بخطورة المبادرة البيزنطية، يبادرون، دون ان ينتظروا أية إمدادات، بإرسال جيش الى مالطا لفك الحصار عنها، ومن ثم فتحها بعد ان أصبح أمر فتح صقلية أمرا أكيدا.

فى الختام ان عمليات الفتح الإسلامى برا وبحرا كانت تخضع الى استراتيجية فى غاية الدقة والتكامل. وتكامل هذه السياسة وشموليتها تعد بمثابة القوة المحركة التى مكنت العرب، ضمن عوامل أخرى، من السيطرة على أهم ممتلكات بيزنطة البرية والبحرية من ناحية، والمحافظة على العلاقة التى ميزت تاريخ المتوسط فى عصره الوسيط. فهذه العلاقة المبنية على مبدئى التجاذب والتبعية كانت قد ميزت تاريخ ضفتى المتوسط، اذ انها كانت وعلى الدوام تدفع بالقوى المنتصبة على إحدى الضفتين بضرورة العبور الى الضفة المقابلة للسيطرة عليها، ولجعلها تابعة لها. وحيث إن جزيرة مالطا كانت من أهم المحطات التى كان على العابر من جنوب إيطاليا الى إفريقية، والعكس ان يتوقف عندها، لعبت هذه الجزيرة دور الجزيرة الحاجزة تارة، ودور محطة إنطلاق للغزو الخارجى تارة أخرى.

وحيث إن هذا العمل كان قد أقتصر على ظاهرة فتح جزيرة مالطا من خلال نظرة متوسطية شاملة، رأيت أن أختمه بتسجيل بعض الشواهد التى تؤكد فى مجملها إستمرارية تجاذب الضفتين الى بعضهما البعض. وحيث إن الضفة الجنوبية لم يعد بإمكانها، خاصة بعد سقوط صقلية فى يد النورمان، منافسة الضفة الشمالية، فإن الشواهد التالية سوف تقتصر على المحاولات الأوربية الرامية الى السيطرة على سواحل إفريقية التى إكتفت فى هذه المرحلة بدور المدافع. إن موقف الضفة الجنوبية الدفاعى كان متواضعا، ولكنه استطاع ان يحقق بعض التكافؤ بين الضفتين.

ففى سياق حديث برنشفيك عن علاقات أبى فارس الحفصى بملك أرجونة ألفونس الخامس الذى تمكن من السيطرة على مدينة نابولى سنة 1412، يذكر بأن هذا الأمير كان قد إستغل"غياب السلطان المشغول فى المناطق النائية من المغرب، وأن يكون أراد إستغلال تلك الظروف لتبنى المشروع الصقلى الثابت، المتعلق بالإستيلاء على جزيرة جربة، فغادر أخوه بطرس دوق نوتو، الجندى الباسل، ميناء نابولى على رأس أسطول متركب من خمس وعشرين سفينة حربية، وبعد ما أرسى الأسطول بميناء سرقوسة للتزود بالمؤونة اتجه نحو بلاد المغرب عن طريق مالطا التى غادرها يوم 10 سبتمبر"[1]. وعندما عجز قائد هذه الحملة عن فتح جزيرة جربة يغير"يوم 19 سبتمبر على جزر قرقنة المفتقرة الى وسائل الدفاع، وقد أبدى السكان مقاومة مستميتة، ولكنهم سرعان ما سقطوا تحت وطأة عدد المغيرين، فقتل مهم عدة مئات ووقع الباقون على قيد الحياة فى الأسر... والغريب فى الأمر ان المنتصرين قد إجتمعوا بأبى فارس الذى أسرع الى صفاقس، وتفاهموا معه حول فدية الأسرى، وما لبث الأسطول النصرانى ان قفل راجعا الى مالطة وصقلية بعد تلك الغارة الهائلة الفاقدة لكل فخر والتى قامت مقام غزوة جربة الفاشلة"[2]. إلا ان الحملات الحفصية الإنتقامية فى جنوب إيطاليا ومالطا لم تكن رادعة، إذ أنها لم تجعل حكام هذه المناطق يقلعون عن فكرة الأستيلاء على جربة، وعلى بقية سواحل إفريقية؛ فعلى الرغم مما إتخذته شؤون ألفونس الإيطالية"من وجهة سيئة فإنه يبحر من قطلونية يوم 23 ماى 1432 متجها نحوبلاد المغرب للقتال بنفسه؛ وأثناء توقفه فى ميورقةوسردينيا، وصقلية، ومالطة إنضمت اليه جيوش سفن أخرى، ثم توجه الى جربة على رأس مائة وثلاثين زورقا"[3].

1- برنشفيك، روبار، تاريخ إفريقية فى العهد الحفصى. من القرن13 الىنهاية القرن 15. نقله الى العربية حمادى الساحلى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1988، 260.

2- المرجع نفسه، 260_261

3- المرجع نفسه، 262.

مبحث فى تاريخ الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية

تعالج هذه الدرا سة بعض ملامح علاقات ضفاف الحوض الشرقى للمتوسط ببعضها البعض عشية الحروب الصليبية من منطلق فرضية كنت قد نوهت بها فى كتاب" مقدمة فى تاريخ المغرب الاجتماعى والاقتصادى" و فى دراسة " الفتح الاسلامى لجزيرة مالطا". وهذه الفرضية المستمدة من فرضية" المركز و الاطراف" تذهب الى ان العلاقات السائدة بين ضفاف المتوسط فى العصرين القديم والوسيط كانت تخضع "لقانون" التجاذب الذى أملته ظروف الحوض المناخية.

هذا وتجدر الاشارة الى انه نشأ وبمرور الوقت عن تجاذب ضفاف المتوسط علاقة تعاون، وهى العلاقة التى مهدت لمرحلة التكامل. وتحول العلاقة من مرحلة التعاون الى مرحلة التكامل يفترض ان تتوج بوحدة المتوسط. غير ان هذه الوحدة لم تحقق وفق هذا التدرج، وما تحقق بالفعل هو سيادة هذه الضفة او تلك وتبعية الاخرى. وتبعية احدى الضفاف لم تكن مطلقة بل كانت تقيدها معطيات معينة تختلف باختلاف موقع المركز وامكانياته. فالضفة/المركز والذى تتميز علاقاته بالمرحلية المشار اليها (تجاذب، فتعاون، فتبعية) غير الضفة/المركز والذى تتولد عملية التبعية عنده من جراء عملية التجاذب فقط. لذلك، وفى حين تنشأ عن تبعية الصنف الاول علاقة ولاء، فانها تقتصر فى الصنف الثانى على مدى قدرة المركز على الاحتفاظ بهذه الاطراف عنوة.

هذا فيما يتعلق بالفرضية المعتمدة فى هذه الدراسة. غير ان البحث فى موضوع تاريخ الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية يتطلب اضافة جزئيات اخرى متممة لهذه الفرضية. فاحدى هذه الجزئيات، وكما سبقت الاشارة، تنص على ان ضفاف المتوسط كانت وعلى الدوام منجذبة الى بعضها البعض. أما فيما يتعلق بالجزئيتين الاخرتين فتذهب احداهما الى ان نشأة المراكز وتكوينها وتغير علاقات ضفاف المتوسط وتقلبها من مركز الى طرف والعكس، تنتج عن التدفق المستمرللشعوب المقيمة فى الداخل نحو الساحل. أما الجزئية الثانية والمتممة للسابقة

فهى تزعم بأنه، وما ان تستقرهذه القوى على احدى ضفاف المتوسط حتى تمد بصرها نحو الضفة المقابلة عبر مجموعة الجزر التى تفصل هذه الضفة عن تلك.

وحيث ان موقع جزيرة قبرص أهلها أكثر من غيرها من جزر الحوض الشرقى للمتوسط لان تكون شاهدا حيا على علاقة التجاذب وبالتالى التبعية المقترحة فى هذه الدراسة، رأيت ان تقتصر الشواهد التى تدعم وجهة النظر هذه عليها دون غيرها. ولكن، وقبل التطرق الى صلب الدراسة والى بعض الشواهد التى تدعم فرضية التجاذب والتبعية، رأيت ان اذكر وفى عجالة بما سبق وان بينت فى دراسة الفتح الاسلامى لجزيرة مالطا. ففى تلك الدراسة خلصت الى ان ظاهرة التبعية لا يمكن، بأى حال من الاحوال، تصورها خارج دائرة التجاذب. وهذه الاخيرة كانت تحكمها، والى حد كبير، ظروف ضفتى المتوسط المناخية.

فالحديث عن المناخ وعن اهمية دوره فى تجاذب ضفاف المتوسط الى بعضها البعض يؤكده عامل مناخى كانت له أهميته ليس فى تحديد عملية التنقل فحسب، بل وفى تحديد مواقيت الابحار. فالابحارفى المتوسط كان مقيدا بعائقين رئيسيين: اتجاه الرياح والتيارات البحرية. فالرياح، وكما يذهب الى ذلك "Fulford" كانت تجبر السفن فى القديم على الابحارشمالا-جنوبا، أو العكس. وعلى الرغم من ان هذه الدراسة تهتم فى الاصل بتجارة برقة المتوسطية مع طرابلس فى القديم، فان الاستنتاجات المستشفة من الاثار تفيد بان وجهةالرياح طوال موسم الابحار (ابريل-نوفمبر) تعد من أهم العوامل التى فرضت نسق التنقل شمال-جنوب. ودون الدخول فى تفاصيل هذه الدراسة، فان النتيجة التى توصل اليها صاحبها هى ان نسبة الابحار شرق-غرب، كانت، ونتيجة لوجهة الرياح من جهة، ولرداءة موانئ المتوسط الطبيعية من جهة اخرى، اقل بكثيرمن نسبة الابحارشمال-جنوب[1].

وعلى الرغم من ان هذه الدراسة تتمحور حول علاقة برقة التجارية بطرابلس، فان الشواهد التى تلمح لعلاقة تجاذب ضفاف المتوسط وجزره كثيرة. فعلاقة برقة مثلا بجزيرة كريت كانت اوثق من علاقتها بمنطقة طرابلس. كما ان محاذاة برقة لمصر لم تنشأ عنها علاقات بحرية، بل ان التواصل البحرى بين المنطقتين كان يتم

1- M. G. Fulford" To East and West. . "169-191.

فى اغلب الاوقات عن طريق جزيرة كريت. وهذا يعود، وكما سبق وان المحت الى ان التوجه العام للرياح السائدة يجعل الابحار بمحاذاة السواحل الافريقية صعبا فى الاتجاهين[1]. وتأسيسا على شاهد محدد كهذا فانه من الممكن للمرء ان يتلمس الاتجاه العام وان يقرر، وبشئ من الحذر بطبيعة الحال، بان بقية ضفاف المتوسط الجنوبية/الشرقية كانت تخضع لنفس الاحكام. وبصرف النظر عن صلة بلاد الشام البرية والبحرية بمصر والتى لا يحتاج المرء لكبير جهد لاثباتها، فان المتمعن فى علاقة ضفاف الحوض الشرقى للمتوسط ببعضها البعض وعلاقاتها بجزيرة قبرص مثلا، سوف يخلص الى ان علاقة التجاذب التى املتها ظروف الحوض المتنوعة كانت حقيقة تؤكدها بقايا الامفورة والصخور الزخرفية والنقود والخزف هذه فى عجالة بعض ملامح ظاهرة التجاذب التى شكلت التيارات الهوائية والبحرية اهم لبناتها. وبمرورالوقت، وبتنوع/تتالى القوى المنتصبة على ضفاف المتوسط، والتى عملت جاهدة على خلخلة التكافؤ الذى تغذيه امكانيات الحوض المتجانسة، تولدت ظاهرة تأرجحت بين التكامل والتبعية. والجدير بالتنويه ان هذه العلاقة الاخيرة املتها، بالدرجة الاولى، خلفية القوى المنتصبة على هذه الضفة او تلك من ضفاف المتوسط. فهذه القوى، والتى لم يكن مركزها على الدوام فى منطقة الساحل كانت، وحتى تحقق شيئا من التكامل الاقتصادى، ملزمة باطباق قبضتها على سواحل ممالكها. وحيث ان هذه السواحل كانت منجذبة للضفة المقابلة، فانه كان على هذه القوى ان تمد ببصرها نحوالضفة المقابلة عبر الجزر الفاصلة.

فبحكم خلفية الفينيقيين التجارية، والتى جعلتهم يحرصون كل الحرص على مد نفوذهم على ضفاف المتوسط، كانت جزيرة قبرص المرحلة الاساسية الاولى لتقدمهم نحو الغرب. وحيث ان وجهة الرياح والتيارات البحرية حددتا فى القديم

1- المرجع نفسه، 169-171. والجدير بالتنويه ان الرحالة المغربى ابن جبير والمعاصر للحروب الصليبية، لمح الى ظاهرة هبوب الرياح وأهميتها فى عملية التنقل بين ضفاف الحوض الشرقى للمتوسط. فمن ذلك ان الرياح الشرقية، يقول ابن جبير، لا تهب فيها الا فى فصل الربيع والخريف، والسفر لا يكون الا فيهما، والتجار لا ينزلون عكة بالبضائع الا فى هذين الفصلين. أنظر ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة أبن جبير، 284. أما الرياح الشمالية الغربية، يتابع ابن جبير فى مكان آخر من الكتاب نفسه، والتى تهب فى شهر نوفمبر فانها مهلكة. فاذا لم تتسبب فى اغراق السفن فانها تعيق انتقالها من الشرق الى الغرب. 285-294.

عملية الابحار، فان الفينيقيين لم يسيطروا على شواطئ الجزيرة المقابلة لمدينة صور بل سيطروا على الاجزاء الجنوبية من الجزيرة حيث اسسوا الاسواق منذ نهاية القرن السابع قبلالميلاد[1].

وفى القرن السابع قبل الميلاد، وبالتحديد بعد سقوط نينوى، والتى أنهت تبعية جزيرة قبرص للسوريين احتل المصريون الجزيرة ولمدة لا تقل عن القرن. ولكن تكاثر عدد القادمين من الغرب (بلاد اليونان) ، والذى سبق احتلال المصريين للجزيرة، جعل القبارصة يديرون أظهرهم للضفتين الجنوبية و الشرقيةويقبلون أكثر على التعامل مع الضفة الشمالية. وعلى الرغم من سيطرة الفينيقيين الطويلة وتعاقب السيطرتين المصرية، والفارسية، ولكن ارتباط القبارصة، ومنذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد بالثقافة اليونانية حوّرهوية القبارصة وبالتالى تبعيتهم. فمنذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ظهرت أبجدية جديدة، متأثرة لا محالة بالقديمة، استمر القبارصة فى استخدامها الى جانب الابجدية الاغريقية حتى حوالى سنة 200، قبل الميلاد[2].

ان انتقال تبعية جزيرة قبرص من المنطقتين الشرقية والجنوبية الى المنطقة الشمالية تأكد فى القرون التالية، وذلك بفضل استمرار قوة جذب الضفة الشمالية وتدهور القوى المنتصبة على الضفتين الجنوبية والشرقية. وقوة جذب الضفة الشمالية لم تنته

1- هذا ويمكننا ان نستشهد، فى هذا السياق، بحادثة فتح المسلمين لجزيرة قبرص والتى تؤكد بدورها سيادة التنقل شمال-جنوب، والعكس. فحين يقرر معاوية بن ابى سفيان والى الشام فتح جزيرة قبرص لا يكتفى بالتنسيق مع عبدالله بن سعد والى مصربل انه، وعلى الرغم من ان اهالى احدى قرى حمص كانوا يسمعون نباح كلابها وصياح دجاجها فانه" يركب من عكة": البلاذرى، ابو الحسن. فتوح البلدان، 153. وما ان يتم للمسلمين السيطرة على الاجزاء الجنوبية لهذه الجزيرة حتى تصبح هذه الاجزاء، وليست كل الجزيرة بمثابة القاعدة الامامية التى تتجمع عندها قوات مصر والشام المتجهة نحو ضفة المتوسط الشمالية. فكلما اقدمت القيادة الاسلامية على هذا الامر، يقول قدامة بن جعفر"كوتب أصحاب مصر والشام فى العمل على ذلك والتأهب له يجتمع بجزيرة قبرص ويسمى ما يجتمع منها الاسطول"أنظر، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتاب. بيروت، دار احياء التراث العربى، 1988، ص ص74-75.

2- انظر:

Encyclopaedia Universalis, art. "Chypre. "

عند السيطرة على جزيرة قبرص، فهذه الاخيرة ما هى الا مرحلة للعابر من ضفة الى أخرى، بل امتدت لتشمل بقية الضفاف. لذلك، وما ان احكم الاسكندر المقدونى (356-323ق. م) قبضته على الضفة الشمالية حتى مد ببصره الى ضفتى المتوسط الجنوبية و الشرقية.

ان السيطرتين اللاحقتين على الحوض الشرقى للمتوسط,أى السيطرتان الرومانية والبيزنطية، كانتا بدورهما من الشمال. لذلك، وباستمرار سيطرة الضفة الشمالية، ترسخت أكثرتبعية سواحل المتوسط الجنوبية/ الشرقية وجزره للضفة الشمالية، وأصبح هذا الحوض، ولفترة زمنية ليست بالقصيرة، بحرا خالصا لسادة الضفة الشمالية.

وفى القرن السابع الميلادى تنطلق قوة مشرقية من الداخل تكاد تجهل كل الجهل عالم المتوسط وأحكامه. فهذا البحر الذى اعتبره الروم ولعدة قرون بحرهم"Mare Nostrum" سوف يشهد فى القرون السابعة، والثامنة، والتاسعة نزاعا متواصلا بين القوى المنتصبة على ضفاف الحوض الشرقى للمتوسط. ان هذا النزاع الذى جعل Pirenne يذهب فى اطروحته المشهورة الى القول بان دخول العرب تسبب فى انهاء وحدة المتوسط. 1 كان ضرورة حتمية فرضتها خلفية هذا الحوض التاريخية. فتاريخ هذا الحوض علمنا بانه وما ان تتمكن احدى قوى هذا الحوض المتمركزة اصلا فى الداخل من السيطرة على اطراف مملكتها الساحلية حتى تعمل

1- فيما يتعلق بنظرية بيرين يمكن الرجوع الى:
Mohammed and Charlemagne; Histoire du Moyen Age. T. VIII:La civil sation occidentale au Moyen Age du XIeme siecle au milieu du XVeme siecle.
هذا وتجدر الاشارة الى اننى اختلف مع بيرين حول هذه النقطة بالذات. فما تمتع به هذا الحوض فى العصرين القديم والوسيط كان ضربا من التكامل اقتصرت فاعليته على ضفة دون سواها. ولكن وبحكم تجاذب ضفاف المتوسط عملت الضفة الاكثر استعدادا على الانقضاض والسيطرة على الضفة المقابلة. لذلك فان هذا التغير يبدو للوهلة الاولى وكانه شاهد على وحدة الحوض. صحيح ان هذا البحر كان وفى اكثر من مرحلة من مراحل تاريخه قاب قوسين او ادنى من مرحلة الوحدة، غير ان اصرار سادة هذه الضفة او تلك على اضعاف الضفة المقابلة وجعلها تابعة، قللت من امكانية قيام وحدة المتوسط.

على العبورالى الضفة المقابلة عبر الجزيرة، أوالجزر الفاصلة[1]. ويمكن للمرء ان يستشهد فى هذا السياق بموقف معاوية بن ابى سفيان من فتح جزيرة قبرص قبل الشروع فى مغامرة فتح بقية جزرالمتوسط وضفته الشمالية.

فعلى الرغم من ان الخليفة عمر بن الخطاب (634-644) لم يأذن له بغزو الجزيرة ولكنه، وهو المقيم فى بلاد الشام، كان يعلم بان تحصين سواحل الشام ومدنه يتطلب قبل كل شئ فتح الضفة الشمالية، اى المركزالذى تأتمر بأمره بقية الاطراف. فسقوط بلاد الشام ومصر لن يضمن ولائهما/تبعيتهما للمسلمين مالم يؤمن المسلمون سواحلهما. وحماية هذه السواحل تتطلب فى هذه المرحلة، علىالاقل السيطرة على الجزر التى تفصل الضفة الشمالية عن الجنوبية. لذلك، وما ان يعتلى الخليفة عثمان بن عفان سدة الحكم (644) حتى يكررمعاوية طلبه. وللمرة الثانية رفض لمعاوية طلبه المتكرر. ولكنه يصر ويخاطب الخليفة مهونا عليه" ركوب البحرالى قبرس, فكتب اليه عثمان:فان ركبت البحر ومعك امراتك فاركبه مأذونا لك، والا فلا. فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة.... وذلك سنة ثمان وعشرين"2. والجدير بالتنويه ان اصرار معاوية على احتلال قبرص يكشف من ناحية مدى اطلاعه على اهمية هذه الجزيرة فى تعزيزخط الدفاع البيزنطى، ومن ناحية اخرى يقينه بان هذه الجزيرة وغيرها من جزر الحوض الشرقى للمتوسط يجب تحييدها اواحتلالها قبل الانقضاض على القسطنطينية مركز هذه الجزر. وهذا التوجه لن يتحقق الا باعداد اسطول قوى. وقد كان معاوية يقول Ostrogorsky"أول أمير عربى يعى بان الحرب ضد بيزنطة غير ممكنة من دون

1- ان عملية التجاذب هذه تكاد تنطق بها الاعمال العربية الاولى. فالمقدسى، مثلا، يحدد موقع الجزر بالمناطق/ البلدان التى تقابلها . فجزيرة صقلية مثلا" تقابل المغرب" أما اقريطش" فتقابل مصر" وجزيرة" قبرص تقابل الشام" ابو عبد الله محمدبن احمد، احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم. بيروت، دار احياء التراث العربى، 1987، ص 27؛ أما نص البكرى فهو أكثر أهمية, اذ وعلى الرغم من ان روايته يغلب عليها الطابع/البعد الاسطورى، ولكنها رواية تؤكد عمق العلاقة بين جزيرة قبرص وسواحل مصر. فالفرما، يقول البكرى "قديمة البناء ويذكر أهل مصر أنه كان منها طريق الى جزيرة قبرس فى البحر فغلب عليه البحر" أبو عبيد، المسالك والممالك، تحقيق أدرين فان ليوفن واندرى فيرى. تونس-طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1992، ج. 2، ص، 624.

2- البلاذرى, فتوح البلدان، 153.

اسطول، لذلك وما ان تم له ذلك حتى بدأ فى تنفيذ مشروع السيطرة على القسطنطينية عبر خط قبرص ورودس"[1].

ان وقوع جزيرة قبرص قبالة الشواطئ الشامية وقربها منها[2]، لم يحدد بمفرده مصيرالجزيرة. فانجذاب الجزيرة نحو هذه الضفة أو تلك هو أمر قررته بالدرجة الاولى ظروف الحوض المناخية. ولكن أمر التبعية فيقرره نجاح أسياد هذه الضفة أو تلك فى الاحتفاظ ولفترة زمنية طويلة ببقية شواطئ الحوض الشرقى التى هى بمثابة المركز الذى تأتمر بأمره جزيرة قبرص. فهذه الجزيرة، وكما يقول المقدسى"هى لمن غلب"[3]. وحيث ان الغلبة لا تقتصر على جانب السيطرة على جميع ضفاف المتوسط فحسب، بل والسيطرة أيضا على المركز (القسطنطينية فى هذه الحالة) فان عجز المسلمين عن انهاء التواجد البيزنطى فى آسيا الصغرى وفى الحوض الشرقى للمتوسط، جعلهم يقبلون بنصف خراجها، اما النصف الاخرفكان من نصيب

1- G. Ostrogorsk ,Histoire de l'Etat Byzantin. Tr. francaise de Gouillard. Paris, Payot, 1983, 147

والمتصفح لبعض المصادر العربية يخلص الى ان العديد من القيادات العربية كانت مدركة لظاهرة المركز والاطراف ولاهميتها فى اتخاذ قرار اى الجبهتين يفضل البدء بها ؟ويكفى ان استشهد فى هذه العجالة بحادثتين تعود الاولى الى القرن الاول اما الثانية فهى من القرن الخامس. ففيما يتعلق بالحادثة الاولى يذكر الحموى بأنه حين عزم الخليفة عمر بن الخطاب فتح بلاد فارس سأل الهرمزان"أبفارس أبدأ، أو بالجبال أوأذربيجان أو اصبهان؟قال:فارس الرأس والجبال جناحان فاقطع الجناحين فلا يتحرك الرأس. قال عمررضى الله عنه:بل اقطع الرأس فلا يقوم جسد ولا جناح ولا رجل. " كتاب الروض المعطار، 580. أما الحادثة الثانية، والتى تدعم هى الاخرى دور فرضية المركز والاطراف فى صنع القرار فانها تذهب على عكس الرواية السابقة الى ان سقوط المركز لا يتأتى الا بعد القضاء على الاطراف. فعن ابن الاثير انه عندما ارادت قبائل بنى هلال دخول القيروان فى القرن الخامس للاسلام اشار عليهم اميرهم مؤنس بن يحى المرداسى بان"يتانوا فى هذا الامر. فقالوا:كيف تحب ان نصنع؟فأخذ بساطا فبسطه ثم قال لهم:من يدخل الى وسط البساط من غير ان يمشى عليه فقالوا:لا نقدر على ذلك. قال:فهكذا القيروان، خذوا شيئا فشيئا حتى لا يبقى الا القيروان فخذوها حينئذ"الكامل فى التاريخ. ج. 9. ص 567.

2- غير ان جزيرة قبرص هى للشواطئ البيزنطية أقرب. ففى حين تبعد هذه الجزيرة عن الساحل الشامى ستين كيلومترا، فانها تبعد عن الساحل البيزنطى أربعين كيلومترا فقط. أنظر الموسوعة البريطانية.

3- المقدسى، أحسن التقاسيم، 159.

بيزنطة. يقول البلاذرى بأن" قبرس فتحت، فتركوا على حالهم وصولحوا على أربعة عشرالف دينارسبعة الاف للمسلمين وسبعة الاف للروم"[1]. لذلك فان طول مدة السيطرة البيزنطية على هذه الجزيرة، فضلا عن عجزالمسلمين (بنى امية فى هذه الحالة) عن الاطاحة بالمركز (بيزنطة) الذى تأتمر بأمره جزيرة قبرص، جعلت القبارصة يرضون بالسيطرة الاسلامية، على‌مضض، منتهزين أقل الفرص للخروج عن العهدالذى قطعوه على‌انفسهم، مقدمين العون للروم اعداء المسلمين. ففى سنة اثنتين وثلاثين، أى بعدفتح الجزيرة بأقل من خمس سنوات أعان القبارصة"الروم على‌الغزاة فى البحر بمراكب أعطوهم اياها"2. وعلى الرغم من ان الامير معاوية تمكن منهم سنة ثلاث وثلاثين ولكن، وليقينه بأن هذه الجزيرة تستمد قوتها من بيزنطة يقبل بمقاسمة خراج الجزيرة ويقر القبارصة على صلحهم. ويبدو ان صلحه هذا، والذى ينص على ان يؤدى القبارصة خراجين، خراج للمسلمين وآخر للروم لم يشهد كبير تغير طوال حكم بنى أمية (661–750). فأهل قبرص، يقول البلاذرى كانوا على"صلح معاوية حتى ولي عبدالملك ين مروان فزاد عليهم الف دينار. فجرى ذلك الى خلافة عمربن عبد العزيز فحطها عنهم. ثم ولي هشام بن عبد الملك ردها، فجرى ذلك الى خلافة ابى جعفر المنصور فقال نحن احق من انصفهم و لم نتكثر بظلمهم، فردهم الى صلح معاوية"[3].

وبوصول أ سرة بنى العباس سنة 750والتى انطلقت دعوتها من منطقة داخلية، الى سدة الحكم ستشهد منطقة حوض المتوسط مرحلة جديدة فى علاقات" الدول" المطلة عليه. ولعل أهم ما ميز علاقات النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى هو انشغال جميع "المراكز" بمشاكلها الداخلية، فضلا عن خصوصية جهود دولة بنى العباس المتمثلة فى القضاء على معارضيها فى الاطراف. لذلك، فبالاضافة للمشاكل التى واجهت بني العباس في بداية الامر، فان امر انتقال مركز السلطة من الشام، ذات الخلفية البحرية الى العراق، ذات التوجه البرى، تسبب فى عملية تعثر نشاط المسلمين البحرى. والاهم من ذلك ان اختيار مدينة بغداد"ابعد المركز

1- البلاذرى، فتوح البلدان، 158.
2- المصدر نفسه، 154.
3- المصدر نفسه، 155.

عن الحدود البيزنطية واصبحت فكرة الاستيلاء على القسطنطينية حلما بعيدا لا هدفا توجه اليه القوى والجهود بصورة منتظمة ومستمرة كما كانت الحالة فى العصر الاموى"[1].

لذلك ونتيجة فشل خلفاء بني العباس الاول فى وضع خطة متكاملة لمحاصرة الدولة البيزنطية، اذ انهم كانوا يكتفون فى حالة الانتصار بفرض الجزية، وبالتنازل عنها او حتى دفعها فى حالة الهزيمة، استفاد البيزنطيون من هذه الهدأة وراحوا يشددون قبضتهم على منافذ مملكتهم فى بحر ايجه ومرمرة، متحفزين من جديد للانقضاض على سواحل المتوسط الشرقية والجنوبية. وعلى الرغم من ان الخليفة العباسى هارون الرشيد أدرك خطورة هذا الامر، اذ يذكر البلاذرى نقلا عن معاوية بن عمرو كيف رأى هذا الاخير" من اجتهاد أمير المؤمنين هارون الرشيد فى الغزو ونفاذ بصيرته فى الجهاد أمرا عظيما (اذ) أقام من الصناعة ما لم يقم قبله، وقسم الاموال فى الثغور والسواحل وأشجى الروم وقمعهم"2. غير ان وفاته منحت الروم هدأة جديدة.

وبوفاة هارون الرشيد (809) شهدت دولة بنى العباس صراعا بين الاخوين الامين والمأمون من أجل السلطة كاد ان يفتت هذه الدولة ويجزءها. غير ان مساندة الفرس للمأمون من ناحية، وظروف بيزنطة الداخلية الحرجة، من ناحية اخرى أجلتا سيطرة هذا المركز او ذاك المطلقة سواء فى اسيا الصغرى او فى الحوض الشرقى للمتوسط. ولكن، وما ان يضع المأمون لمشاكل دولته الداخلية حدا حتى يباشر بنفسه خطط محاصرة أطراف الدولة البيزنطية. ولكنه يخلص الى نفس النتيجة. فالسيطرة على الاطراف، أى على الثغورالشامية، بالاضافة الى مدن وحصون حدوده مع بيزنطة، فضلا عن مقاسمة البيزنطيين خراج قبرص مثلا سوف تكون مؤقتة ما لم يحجم بيزنطة، مركز ضفة الشمال. ويبدو ان هذا الامر لم يكن خافيا على المأمون. فهذا الاخير"غزا الروم واستعد لحصار عمورية وقال: أوجه الى العرب فاتى بهم من البوادى ثم انزلهم كل مدينة أفتحها حتى أضرب الى

1- الدورى، عبد العزيز,العصر العباسى الاول. دراسة فى التاريخ السياسى والادارى والمالى. بيروت، دار الطليعة، الطبعةالثانية، 1988، 73

2- البلاذرى، فتوح البلدان، 163.

القسطنطينية. فأتاه رسول ملك الروم يدعوه الى الصلح والمهادنة ودفع الاسرى الذين قبله، فلم يقبل.... (ولكنه) توفى بموضع يقال البدندون بين لؤلؤة وطرسوس، وكانت وفاته يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة 218 (833) "[1] وبوفاة المأمون تخلى خلفاء بنى العباس أو كادوا عن أمر البحر، تاركين مهمة مقارعة الروم لبعض ممالك الاطراف ولبعض المغامرين المسلمين. وباستمرار الوضع على هذا النحو طوال القرن التاسع وبداية القرن العاشر، تهيأت للبيزنطيين فرصة جديدة لم تمكنهم من اعادة بناء أسطولهم فحسب[2]، بل ومن التأهب للانقضاض على ضفتى المتوسط الشرقية والجنوبية عبر جزر الحوض الشرقى للمتوسط.

فالمتصفح مثلا لبعض المصادر الاسلامية يرى كيف انه وبعد ان كانت بيزنطة فى موقف دفاعى تتمكن فى هذه المرحلة (العقد الرابع للاسلام/العاشر الميلادى) من مهاجمة المدن الاسلامية والسيطرة على بعضها[3]. كما لم ينته الزحف البيزنطى عند سواحل الشام، بل امتد ليشمل كامل الحوض الشرقى للمتوسط. وحيث ان الجزر كانت وعلى الدوام المعبر/المحطة التى تتوقف عندها الجيوش المتجهة جنوبا أو شمالا، قرر البيزنطيون الاسراع فى احتلالها. ففى صائفة سنة 961 يقول Ostrogorsky هاجم Nicephore Phocas جزيرة كريت على رأس أسطول كبير، وبعد حصار شاق وطويل استغرق فصل الشتاء، افتتحت جيوشه فى شهر مارس سنة 961عاصمة الجزيرة كاندى[4]. وفى سنة 965 سقطت جزيرة قبرص وملكها البيزنطيون الذين استغلوها فى تكثيف هجماتهم على بلاد الشام. وصحوة بيزنطة هذه والتى كانت على حساب تهالك قوة المسلمين فى الحوض الشرقى للمتوسط ما كانت لتتوقف عند النصف الاعلى للحوض لولا قدوم سيد جديد منافس لبيزنطة فى الحوض الشرقى للمتوسط. لذلك فانه يجب التطرق الى موضوع انتقال الفاطميين الى هذا الحوض فى اطار هذا التغير الذى عاشته المنطقة.

1- اليعقوبى، أحمد بن أبي يعقوب. تاريخ اليعقوبى، بيروت للطباعة والنشر، 1980، ج. 2. ص. 469.

2- 17-G. Ostrogorsky, L'histoire de L'Etat Byzantin,284.

3- نقلا عن سهيل زكار. مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية. دار الفكر، 1975، ص. 68.

4- Ostrogorsky,L' histoire de L'Etat Byzantin,284.

ان الرواية التقليدية التى تذهب الى ان انتقال الفاطميين كان يهدف الى التخلص من بلاد المغرب كثيرة الفتن، والى زعزعة النفوذ العباسى فى المشرق، هى رواية مقبولة لا محالة، ولكنها تظل رواية جامدة وغير قادرة على تفسير هذا الحدث تفسيرا ديناميكيا. فانتقال الفاطميين الى الحوض الشرقى للمتوسط أملته، بالدرجة الاولى، مغناطيسية التجاذب التى يستجيب لها تجار الضفتين ويحسون بها قبل غيرهم. فقيام "الدولة" الفاطمية بافريقية ونجاحها فى السيطرة على تجارة بلاد السودان، وعلى أهم معابر تجارة الحوض الغربى للمتوسط أهلاها لان تستشعر أى تغير يطرأ على نسق عمليات التبادل. لذلك أحس الفاطميون، ومنذ منتصف القرن العاشر بأن نبض العمليات التجارية فى الحوض الغربى للمتوسط كان فى انخفاض مستمر، وبأن ميلا ما قد طرأ على سير عمليات التبادل بين ضفتى هذا الحوض. فبعد ان كانت عمليات التبادل شمال-جنوب عبر جزيرتى سردينيا وصقلية أصبحت تنطلق من الشمال باتجاه الشرق عبر جزيرة قبرص. بناء على ذلك أصرالفاطميون، ومنذ قيام"دولتهم"بالمغرب على ضرورة الانتقال الى الحوض الشرقى للمتوسط. فانتقالهم الى المشرق سوف يحقق على الاقل هدفين:يتعلق الاول بالسيطرة من جديد على تجارة الشرق التى بدأ المسلمون يفقدونها لصالح تجار ايطاليا (البنادقة بالدرجة الاولى) . أما الهدف الثانى فقد كان ذو بعد استراتيجى، ليس بالجديد على أى حال. فالتفكير فى السيطرة على ضفتى المتوسط الجنوبية والشرقية كانت مرحلة أساسية للتقدم نحو الضفة الشمالية عبر الجزر الفاصلة. بناء عليه فان أمر سقوط جزر رودس وكريت وقبرص فى أيدى البيزنطيين الذين تربطهم، فى هذه المرحلة، بالبنادقة اتفاقيات تجارية وغير تجارية، كانت أكثر من مجرد انذار للفاطميين. تبعا لذلك فان هدف انتقالهم فى هذه الفترة بالذات لم يكن سوى استعادة السيطرة على الحوض الشرقى للمتوسط. لانه لو اقتصر الامر على مجرد السيطرة على مصر لما تكبل الفاطميون كل هذا العناء ولما اضطروا لترك/مغادرة افريقية. فقد كان بامكانهم ضم مصر اليهم وهم فى المهدية، أو على الاقل اجبارها على دفع الاتاوة. فالمتمعن فى أحداث انتقال الفاطيين لمصر يرى كيف ان المعز لدين الله الفاطمى لم ينتقل الى مصر الا بعد انتهاء جوهر الصقلى من بناء القاهرة.

تأسيسا على ما تقدم فان انتقال الفاطميين " الواعى" .بمجريات الامور تسبب فى تعطيل حركة المد الشمالى ولكنه لم يلغه. فقرار انتقال الفاطميين الى مصر والذين اعتقدوا بأن اصطحابهم أغلبية الاسطول الافريقى1، سوف يرجح كفة الضفة الجنوبية، كان قرارا وبكل ايجابياته منقوصا، اذ لم ينظر لهذه التغيرات الا من زاوية واحدة. فالسيطرة على الضفة الجنوبية وتوحيد امكانياتها هى خطوة أساسية لمن يفكر فى الانتقال، عبر الجزر الفاصلة، الى الضفة الشمالية. غير أنه فات الفاطميين أمران: الاول هو ان خضوع الجزر الشرقية"لدولة"الاسلام كان، مقارنة بسيطرة أسياد الضفة الشمالية، سطحيا، وبذلك فان السيطرة الاسلامية وحتى فى أوج "دولة" الاسلام وازدهارها لم يتولد عنها ولاء. فجزيرة قبرص مثلا ظلت تدفع خراجين، خراج للبيزنطيين، وهم غير قادرين على حمايتها، وخراج للمسلمين. ويبدو ان الفاطميين كانوا غير مدركين تماما لهذه الجزئية التى لم تتضح كل معالمها الا بعد رحيلهم، لذلك فانهم اكتفوا غداة انتقالهم بالسواحل الشامية (أطراف مصر فى كل العصور تقريبا) ، أما الجزر فقد صرفوا النظر عنها تاركين أمرها لسادة الشمال. أما الامر الثانى والذى لم يدر بخلد الفاطميين فهو اعتقادهم بان خروج الجزر الشرقية للمتوسط سببه صحوة بيزنطة التى كانت على حساب انفراط عقد "دولة" بني العباس، وانتقال تجار ايطاليا الى المشرق. غير ان الفاطميين لم يوفقوا وللمرة الثانية فى تقدير الامور. فقد فاتهم بأن الصحوة البيزنطية، وتحول تجار ايطاليا من غرب الحوض الى شرقه لم يشكلا مجتمعين الا جزء واحد فقط من أجزاء عملية المد الشمالى، أما بقية الاجزاء المتممة لتفسير ظاهرة المد هذه فانها تكمن فى صحوة ممالك القارة الاوروبية (وهى المركز الفعلى لسواحل الضفة الشمالية عبر العصور) وتأهبها منذ منتصف القرن العاشر الميلادى للاقلاع.

ولكن وعلى الرغم من قلة دراية حكام مصر الفاطمية بهذه التغيرات فان سيطرتهم على سواحل الشام واستمرار تدفق الاموال الى خزانتهم لطّف من أزمة مصر الاقتصادية التى أطاحت بالاخشيديين، ومكنتهم من التصدى للمد الشمالى

1- ادريس، هادى روجيه. الدولة الصنهاجية. ترجمة حمادى الساحلى، بيروت، دار الغرب الاسلامى. 1992.

فى الحوض الشرقى للمتوسط[1]. فالعصر الاول من الخلافة الفاطمية بمصر (969-1065) وكما يجمع على ذلك عديد المؤرخين، اتسم نسبيا بالاستقرار والرخاء. وهذه الوضعية لم تكن فى حقيقة الامر وليدة الاوضاع الداخلية فحسب، بل كانت أيضا بفضل التغيرات"العالمية" التى بشرت بها ثورة العصور الوسطى التجارية التى انطلقت حوالى سنة 950. فحول البحر الابيض المتوسط ازدهرت فى هذه المرحلة التجارة و لم تعد مقتصرة على الضفة الجنوبية، كما احتاج الناس أكثر لاستخدام أساليب وتقنيات متنوعة، ومن أصول متنوعة. وليس من قبيل الصدفة أن يتزامن انتقال الفاطميين لمصر (منتصف القرن العاشرالميلادى) مع البداية الفعلية لوثائق الجنيزة[2]. لذلك فان "الدولة"الفاطمية أصابت كغيرها جانبا من الثورة التجارية فى العهد الفاطمى الاول[3]، ولكنها، وهذا الاهم، لم تنفرد بهذه الخاصية.

هذا من ناحية، من ناحية أخرى ان توحيد الضفة الجنوبية للمتوسط كان يتطلب، ضمن عوامل عديدةأخرى، العمل على الاسراع/التسريع فى تحويل العلاقة من مرحلة تعاون الى مرحلة تكامل. فمصر التى غدت ومن جديد مركزا لبلاد الشام وافريقية وجزيرة قبرص، كانت مطالبة بدعم هذا التوجه ورعايته. غير ان حكام مصر المهوسين، كغيرهم من حكام العصور الوسطى، بفكرة نزوع البلاد التابعة لهم بالاستقلال، لا يكتفون باتخاذ كل الاحتياطات اللازمة لتأكيد تبعية

1- ان هذه التغيرات السريعة، وتحول هذه الضفة أو تلك من مرحلة التفكك الى مرحلة التماسك سببه ان النزاع تميز"بنوع من المنافسة المتكافئة بين طرفين متساوين يستطيعان استغلال تناقضتهما الداخلية المتبادلة دون وجل ولا حرج"أنظر د/سمير أمين، د/فيصل ياشير. البحر المتوسط فى العالم المعاصر (دراسة فى التطور المقارن:الوطن العربى وتركيا وجنوب أوروبا) بيروت مركزدراسات الوحدة العربية، 1988، 18.

2- يقول جويتين بأن الغزو الفاطمى لمصر فى شهر يوليو سنة 965 يسجل بداية المرحلة الكلاسيكية لوثائق الجنيزة، أما أفول أسلافهم الايوبيين سنة 1250 فانه يوافق تقريبا نهايتها. انظر:

S. D. Goitein,editerranean society. ,V. I. 29.

3- سعد,أحمد صادق. فى ضوء النمط الاسيوى للانتاج:تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى. بيروت دار ابن خلدون. 1979، ص، 253

الاطراف[1] فحسب، بل نراهم يحرمون الاطراف من أهم مقومات الاستمرار والتصدى. فلم يكتف الفاطميون مثلا باصطحاب كتامة وأغلبية الاسطول الافريقى، فضلا عن الاموال التى نقلوها معهم فحسب[2] بل عزلوا جزيرة صقلية، المحطة المتقدمة نحو الضفة لشمالية، عن الزيريين. وهذا المثال يعد أكثر الامثلة وضوحا على سياسة حكام العصر الوسيط. فأمر عزل هذه الجزيرة يمثل فى اعتقادى أخطر قرار اتخذه الفاطميون. فهذا القرار، والذى تسبب فى فترة لاحقة، فى تصدع العلاقة بين مصر وافريقية هيأ فى ذات الوقت الفرصة لاسياد الشمال، الذين اضطروا فى فترة سابقة للانتقال للحوض الشرقى للمتوسط، لمنافسة المسلمين فى الحوض الغربى، بل والسيطرة عليه.

فبعد ان كان هذا الحوض، وحتى بعد رحيل الفاطميين لمصر بفترة وجيزة، بحيرة اسلامية، شهد فى بداية القرن الحادى عشر تحولا لصالح الضفة الشمالية. وهذا التحول فى حقيقة الامر يصعب تفسيره هو الاخر خارج ظاهرة التجاذب والتبعية. فصقلية وسردينيا ومالطا هى للاراضى الايطالية أقرب. لذلك فان ارتباطهم بالضفة الشمالية كان عبر العصورأوثق. هذا، كما ان سيطرة سادة الضفة الجنوبية (القرطاجنيون فى القديم والمسلون فى الوسيط) على هذه الجزر دون السيطرة على الضفة الشمالية تولدت عنها تبعية متقطعة، وبالتالى فان ولاء جزر الحوض الغربى للمتوسط ظل وعلى الدوام لسادة الشمال. لذلك، وما ان تغيرت الظروف لصالح الضفة الشمالية، وهى ظروف تعود فى مجملها لعوامل داخلية/ذاتية، حتى مد سادة الشمال بأبصارهم نحو الضفة الجنوبية عبرهذه الجزر. ففى عام1015، وبتحريض من الكنيسة هاجم البيزنطيون، صحبة الجنويين،

1- فيما يتعلق بهذه الظاهرة بالذات بامكان القارئ ان يرجع الى الحوار الذى دار بين الخليفة المعزلدين الله الفاطمى وبين الاميرين جعفر بن علي والمعز يوسف بن زيرى بخصوص من يتولى أمر المغرب بعد رحيله. أنظر، المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الحنفا، تحقيق د/جمال الدين الشيال، القاهرة، 1967 . ص ص99-100.

2- يذكر المقريزى بأنه لما عزم"المعز على الرحيل الى مصر أتاه بلكين بن زيرى بألفى جمل من ابل زناته وحمل ما له بالقصور من الذخائر وسبك الدنانير على شكل الطواحين، وجعل على كل جمل قطعتين"اتعاظ الحنفا. ج. 1. ص. 100. هذا ويزعم أرشيبالد بأن هذا القدر من المال يفوق الـ 24000000 دينار انظر:

164Naval power and trade in Mediterranean. AD 500-1500.

سردينيا. هكذا وبفضل هذا المد الذى استهدف فى بادئ الامر جزر الحوض الغربى للمتوسط، استكمل النورمان ما بين سنة (1071-1091) غزو جزيرة صقلية. وبغزو النورمان هذه الجزيرة لم تتأكد تبعية جزر الحوض الغربى للمتوسط للضفة الشمالية فحسب، بل تأكد معها تفوق الضفة الشمالية وبالتالى سيطرتها طوال العصور الوسطى المتأخرة.

ان النتيجة الاولى والمباشرة اذا لانتقال الفاطميين الى مصر, وعلى النحو المقترح سابقا، كانت خروج افريقية عن الفاطميين وسقوط صقلية فى أيدى النورمان. وفى حين عاقب الفاطميون الزيريين (ارسال قبائل بنى هلال عليهم) فان سقوط صقلية لم يحرك لهم ساكنا. والاهم من ذلك ان موقف الفاطميين يكاد ينسحب على كامل سادة الضفة الجنوبية الذين اكتفوا منذ ذلك التاريخ (1091) بالمدافعة تارة وبالاغارة علىبعض السفن التجارية تارة أخرى. ولهذا"التغير" بطبيعة الحال أسبابه. وحيث ان هذه الدراسة تتمحور فى الاساس حول الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية رأيت ان أكتفى بهذا القدر من المعطيات ذات العلاقة ببعض ملامح أزمات مصر الخارجية لاقصر الحديث فيما يلى عن أزماتها الداخلية والتى حالت دون قيام مصر بأى عمل لا فى الحوض الغربى للمتوسط ولافى شرقيه. إن أزمات مصر الداخلية كانت على درجة كبيرة من الحدة والخطورة الامر الذى أدى الى خروج أطراف أخرى (سواحل فلسطين وبلاد الشام) وسقوطها تباعا فى أيدى السلاجقة والفرنجة.

فأزمات مصر الداخلية فى العصر الفاطمى الثانى (1065-1171) كانت متنوعة ولا يمكن الوقوف عند أسبابها مفصلة. فبعض هذه الاسباب كان سياسيا (سوء الادارة وتعسف السلطة الحاكمة واستبدادها) ، وبعضها الاخر يكمن فى حروب مصر مع بيزنطة ومع أمراء بلاد الشام، فضلا عن صراعاتها مع أصدقاء الامس، القرامطة. غير ان العامل الرئيسى فى اعتقادى وراء تفاقم الازمات التى شلت لاحقا حركة الفاطميين على المستوى الخارجى خاصة، هو عامل الغلاء وما ترتب عليه من نتائج لعل أهمها على الاطلاق المجاعات والاوبئة والهبوط الرهيب فى عدد السكان.

وظاهرة الغلاء خاصة مهمة جدا فى توضيح بعض مشاكل مصر الداخلية. فالمتمعن، مثلا، فى كتاب المقريزى"اغاثة الامة بكشف الغمة" يرى كيف ان مصر لم تشهد خلال القرون الثلاثة الاولى للاسلام غلاء الا مرتان: كانت الاولى سنة سبع وثمانين للهجرة (705) ، والثانية كانت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة (949). أما فى العصر الفاطمى فان حلقة الغلاء لم تنقرض بل تواصلت ولسنوات عديدة. ولعل الغلاء الذى وقع أيام المستنصر (1036-1094) يعد أخطرها على الاطلاق. ولان نص المقريزى يشمل تقريبا أهم أسباب أزمات مصر الداخلية رأيت، وعلى الرغم من طوله النسبى، ان انقله كاملا.

يقول المقريزى"ثم وقع الغلاء فى أيام المستنصرالذى فحش أمره وشنع ذكره. وكان أمده سبع سنين. وسببه ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة واستيلاء الامراء على الدولة واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل وعدم من يزرع ما شمله الرى. وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربع مائة (1065). فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تعطلت الاراضى من الزراعة. وشمل الخوف وضيقت السبل برا وبحرا..... واستولى الجوع لعدم القوت حتى بيع رغيف خبز فى النداء.. كبيع الطرف بخمسة عشر دينارا، وبيع الاردب من القمح بثمانين دينار. وأكلت الكلاب والقطط حتى قلت الكلاب، فبيع كلب يؤكل بخمسة دنانير. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا... وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن:الجوع الجوع، تردن المسير الى العراق فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعا. واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور أبائه"[1].

ان نص المقريزى يشتمل فى حقيقة الامر على معلومات متنوعة تؤكد فى مجملها مدى تاكل المجتمع المصرى عشية الحروب الصليبية. وقد تبدو بعض تفاصيل هذا النص مهزوزة وغير منسجمة مع ما ذكره صاحب الكتاب لاحقا، غير ان هذا الشاهد وغيره من الشواهد تدعم هذا الوصف وتبين بما لا يدع مجالا للشك مدى معاناة مصر الفاطمية وبالتالى تهالكها. فتهالك مصر فى الداخل زاد فى تعميقه خروج الاطراف. فبالاضافة الى انتزاء الزيريين بأمر افريقية سنة (1051)

1- المقريزى، تقى الدين أحمد بن على، اغاثة الامة بكشف الغمة، المحقق عبد النافع طليمات، الناشر، حمص، دار ابن الوايد. د. ت ص، 23.

فان أطرافا أخرى ببلاد الشام نجحت بدورها فى الخروج عن مصر. فبعد ان أحكم الفاطميون قبضتهم على دمشق وأزاحوا عنها أفتكين الذى ألحق نفسه بالبيزطيين، سيطروا على حلب سنة 1015. غير ان هذه السيطرة لم تستمر طويلا. ففى سنة 1023 استرجع صالح بن مرداس مدينة حلب التى استمر ورثته يحكمونها حتى سة 1079. كما خرجت مدينة طرابلس عن الفاطميين سنة 1069. وفى نفس السنة تقريبا خرجت مدينة صور. وبالرغم من ان الفاطميين استردوا هذه المدينة سنة قبل مجئ الصليبيين، غير ان تهالك مصر الفاطمية الذى تميزت به طوال النصف الثانى من القرن الحادى عشر، لم يمكنها من استرجاع المدن/الاطراف التى خرجت، فضلا عن عجزها، ومنذ البداية، عن السيطرة على شمال بلاد الشام الذى كان أوثق صلة ببيزنطة وأقل تأثرا بمصر. وكان على هذه المناطق ان تنتظر قدوم السلاجقة الذين ارتبط مصيرهم، بحكم موقعهم، بدار الاسلام. ان"دولة"بهذا الوضع لا يمكنها قطعا استرجاع ما فقدته، أوحتى مجرد التفكير فى التصدى للمد القادم من الشمال. بل ان المرء لا ينفك يتساءل عن سر استمرار حكام مصر فى قيادتها ونجاحهم فى حماية البلاد وبعض سواحل الشام حتى قدوم الفرنجة؟ ان الاجابة على نصف هذا السؤال يمكن التعرف عليها عبر عرض بعض أحوال بيزنطة، منافسة مصر وسيدة الضفة الشمالية.

يذهب كل من "Ostrogorsky" و "Diehl" الى ان الفترة الواقعة بين 843 أو 867 و1025 هى فترة ازدهار الامبراطورية البيزنطية[1]. فمنذ سنة 867 تقريبا وحتى تاريخ دخول الفاطميين مصر (969) وهى الفترة التى تخللتها عديد النزاعات بين أسياد مصر والشام، شهد الحوض الشرقى للمتوسط تنامى قوة بيزنطة البحرية خاصة، والتى تمكنت بفضلها من استعادة جزر هذا الحوض. وبقدوم الفاطميين الى الحوض الشرقى لم يحدث أى تغير يذكرعلى وضعية الجزر، ولا حتى على شمال بلاد الشام، فما تغير بالفعل هو قبول الطرفين بالامر الواقع واعتراف كل منهما بالاخر" وبشرعية"نظامه. وفى ضوء هذه العلاقة أبرم الامبراطور (Basil II) صلحا مع

1- G. Ostrogorsky, L'Etat Byzantin; Ch. Diehl, Byzantium: Greatness and decline. Rutgers University press. 1957.

الخليفة الفاطمى العزيز بالله سنة 987 [1]. ونتيجة استمرار الضغط السلجوقى اضطر الامبراطور الى عقد اتفاقية مع الخليفة الفاطمى الحاكم سنة 1001، ولمدة عشرة سنوات[2]. كما أبرم الامبراطوررومانوس الثالث (1028-1034) فى فترة لاحقة معاهدة مع الفاطميين[3]. والمتمعن فى بعض ما ورد فى هذه الاتفاقية من بنود قد يخلص الى ان كفة الصحوة البيزنطية كانت أرجح. فلقد نصت أحد البنود على ضرورة تأمين"حرية العبادة للمسيحيين وترميم الكنائس"[4]. غير ان هذه الصحوة لم تكن فى حقيقة الامر كاملة، فلقد كان على بيزنطة ان تجامل السلاجقة والفاطميين فى آن واحد. فلتأكيد حسن نواياهم تجاه السلاجقة شيد الامبراطور هونوماك عام 1049 أو 1050 "مسجدا جديدا وزوده على حسابه الخاص بجميع لوازم العقيدة الاسلامية"[5]. كما كان على بيزنطة ان تمول مصر بالحنطة فى أزمتها الشديدة التى عرفتها فى عهد الخليفة المستنصر. 6نخلص من هذا كله الى ان تكافؤ الصحوة، ان صح القول، وتزامنها مع تنامى الزحف السلجوقى من ناحية، وقدوم قوة فتية (البنادقة) الى الحوض الشرقى للمتوسط من ناحية أخرى، جعل خارطة هذا الحوض تبقى على ما هى عليه. وهكذا، وكما حقق مبدأ تكافؤ ضفاف المتوسط شيئا من التوازن فى الحوض الشرقى للمتوسط، فان تهالك قوة ضفة المتوسط الجنوبية/الشرقية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، لم يقتصر عليها اذ استجابت له، وفى نفس الوقت تقريبا قوة الضفة الشمالية.

ففى الوقت الذى تعرضت فيه مصر لازمات داخلية خانقة يفترض ان تضاعف من تفكك مؤسساتها الداخلية وتجعلها عاجزة بالتالى عن حماية أطرافها الساحلية (محط أنظار ومطامع أسياد الضفة الشمالية عبر العصور) شهدت بيزنطة فى

1- الشوربجى، أمينة أحمد. رؤية الرحالة المسلمين للاحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العهد الفاطمى (358-567/969-1171) القاهرة، 1994، 372.

2- A. Hamdani "some considerations on the Fatimid Caliphate as a Mediterranean power" in proceeding of the III congress of Arabic and Islamic studies. Ravello. Pub . Napoli,sept. 1967,387.

3- اليوسف، أحمد عبد القادر. الامبراطورية البيزنطية. منشورات المكتبة العصرية، 1984، 134.

4- المرجع نفسه.

5- ف. هايد. تاريخ التجارة فى الشرق الادنى فى العصور الوسطى، 68.

6- A. Hamadani"some considerations... "387.

الاطراف مشاكل لا تقل أهمية وخطورة عن مشاكل مصر منعتها بالتالى من استغلال الفرصة واسترجاع السيادة المطلقة على الحوض الشرقى للمتوسط. فمنذ سنة 1059 يقول "Ostrogorsky" حقق النورمان انتصارات متزايدة[1]. كما قام المجريون بهجوم شرس مكنهم من الاستيلاء على بلغراد، قلعة الدانوب سنة 1064. 2وفى نفس السنة تقريبا يترك الغز السهل الروسى الجنوبى ليحتلوا جزيرة البلقان. وتذكر المصادر ان هذه الهجمات كانت عنيفة ومدمرة فى آن واحد، و لم يخلص بيزنطة منها غير داء الطاعون.

ان الكوارث التى المت ببيزنطة، والتى أدت الى خروج العديد من الاطراف، لم تتوقف. ففى عام1071 تعرضت بيزنطة، وفى نفس الوقت تقريبا، الى هزيمتين فى طرفيها الغربى والشرقى. ففى الغرب تمكن النورمان بقيادة Guiscard من احتلال مدينة بارى. أما فى الشرق فقد أنزل السلاجقة بالبيزنطيين هزيمة نكراء فى موقعة مانزكرت. 3وفى حين شكل احتلال النورمان لمدينة بارى خطورة على مصالح بيزنطة فى غربى المتوسط، فان هذا الخطر كان ثانويا اذ أنه استهدف منطقة نائية نسبيا عن المركز. أما هجوم السلاجقة فقد كان أكثر خطورة اذ دحر البيزنطيين باتجاه الغرب وأفقدهم مناطق حيوية هامة فى آسيا الصغرى. واذا أضفنا لمشاكل بيزنطة الخارجية مشكلتى الثورات الداخلية وتدهور الاقتصاد البيزنطى، يدرك المرء مدى تخبط هذه الدولة وتفككها.

فعلى المستوى السياسى، وبعد ان شهدت بيزنطة شيئا من الإستقرار وحتى حكم Basil II الذى امتد قرابة نصف القرن (976-1025) ، فإنهاعرفت بعدعهده عدة فتن، ولعل فتنة 1042 كانت أخطرها على الاطلاق. فهذه الفتنة التى اندلعت فى شهر أبريل كان سببها عزل الامبراطور ميكائيل الخامس"الامبراطورة المحبوبة"زو" وحبسها فى دير. فثار الناس وتوقفوا عن العمل وتذمرت الجماعات فى شوارع المدينة وحملوا السلاح. وبعد ان فتحوا السجون وأطلقوا المساجين اتجهوا الى القصر.... ففر الامبراطور رفقة عمه الى البيت الدينى الملحق بالملعب.

1- Ostrogorsky, L'Etat Byzantin,365.

2- المرجع نفسه، 365.

3- المرجع نفسه. 367.

وعلى الرغم من توسلهما للجماهير الغاضبة، غير ان هذه الاخيرة انتزعتهما من المقدس مسحوبين من أعقابيهما الى الميدان وسط هتافات وأغان متوحشة وسافرة... محمولين على ظهر بغل حيث قيدا الى الجلاد الذى كان ينتظر قدومهما ليقتلع عيناهما"[1].

واذا ما تركنا الوضع السياسى جانبا وانتقلنا للحديث عن الوضع الاقتصادى فان المرء يخلص الى ان هذا الاخير لم يكن أفضل حال من الوضع السياسى. فالعملة البيزنطية أصبحت فى هذه المرحلة متزعزعة مما اضطر الدولة لاضافة معادن غير ثمينة لنقودها الذهبية. وكانت بداية انخفاض النومسماالبيزنطية التى لم تعرف طوال أكثر من ألف سنة أية تقلبات فى الاسعار. وهكذا فقدت العملة البيزنطية استقرارها الفريد الذى تمتعت به حتى ذلك التاريخ فى العالم[2]. كما ضاعف الغزو السلجوقى لآسيا الوسطى من تفاقم وضع بيزنطة الاقتصادى وترديه؛ان هذا الغزو حرم بيزنطة من أغنى مقاطعاتها خاصة تلك الواقعة فىآ سيا الصغرى والتى كانت تمثل قوة الامبراطورية. أمام هذا التسارع نحو الهاوية كان على بيزنطة ان تسلك هى الاخرى مسلك كل دولة لم تعد قادرة على حماية مصالحها بنفسها، فقامت، تبعا لذلك بالاستنجاد بقوة خارجية تسندها فى المحافظة على حدود مملكتها، وفى التصدى للمد الخارجى، السلجوقى فى هذه الحالة.

وظاهرة استنجاد البيزنطيين بقوة حليفة تربطها بها علاقات تتأرجح بين التكامل والتبعية، هى ظاهرة لم تكن مقتصرة على البيزنطيين فقط. فقد استنجد المسلمون بدورهم بعديد القبائل "الحليفة" حتى تمنع سقوط هذه الامارة أو تلك. غير ان اللافت للنظر هو ان هذه القوى/القبائل التى تأتى للنجدة كثيرا ما تصبح اما حاكمة للبلاد أو متحكمة فيها. 3ولعل فى دراستنا مثلا لعلاقة بيزنطة (المركز) بالبندقية (الطرف) أكبر ديل على ما ذهبت اليه.

1- Ch. Diehl. Byzantium Greatness and decline,191.

2- G. Ostrogorsky. L'Etat Byzantin,371.

3- وللتدليل مثلا على تحول علاقة القوى المستقدمة من مجرد جنود مماليك الى ملوك يحكمون البلاد ويتحكمون فى العباد، سوف أكتفى بنقل الحوار التالى والذى دار بين السلطان ألب أرسلان وأحد مرافقيه المدعو أبو جعفر محمد بن أحمد البخارى. فقد قال هذا الاخير

والجدير بالتنويه ان ظهور مدينة مثل البندقية على ساحة الاحداث"العالمية" في هذه المرحلة بالذات لم ينشأ عن انفراط عقد بيزنطة فحسب، بل كان أيضا بسبب عمليتي المد و الجزر اللتان ميزتا تاريخ الحوض الابيض المتوسط في العصرين القديم والوسيط. ان عمليتي المد والجزر، وكما سبقت الاشارة، أملتهما عوامل عديدة، ولعل عاملا التجاذب -وما نشأ عنه من تعاون وتكامل وتبعية-والتكافؤ كانا من أبرز العوامل التي شكلت تاريخ الحوض. فضفاف المتوسط نادرا ما شكلت في مراحل تاريخها المختلفة مراكز قوة تأتمر بأمرها بقية المناطق والشعوب، بل كانت وعلى الدوام أطرافا لمراكز تقع في الداخل، أوحليفة لها. لذلك وحتى تبقى سواحل هذه الضفة أو تلك على درجة من القوة ترهب الضفة المقابلة، كان علي المناطق الداخلية أن تمونها بالعتاد والرجال. وحين تتعارض مصالح المركز (في داخل القارة) مع الطرف (في الساحل) أو حين تعجزمناطق الداخل عن القيام بمساندة الساحل، تتعرض هذه السواحل لهجمات الضفة المقابلة. والمتتبع لحركات تنقل الشعوب على ضفاف المتوسط يخلص الى ان قيام المدن علىالسواحل كان ناتجا عن التغيرات الداخلية. فهذه المدن تنشأ في العادة اما عن قرار يتخذه سادة المركز المتواجدين في الداخل، أو أنها تبعث، في مرحلة تفكك السلطة المركزية، من قبل أفراد غير قادرين على مجابهة سادة الداخل.

والدارس لمدينة البندقية مثلا يخلص الى ان قيامها كان بسبب العامل الاخير. فأجداد البنادقة الذين لم يقوا على مجابهة برابرة الشمال لاذوا بالفرار لاجئين الى جزر/أرخبيل البندقية. وحيث ان أرض الجزيرة لم تؤهلها لاى نشاط زراعي يذكر، فان سكانها عملوا على استثمار أموالهم وتنميتها في المضاربات التجارية. وبسبب عزوف ممالك أوروبا عن التجارة وبفضل موقع البندقية تهيألسكانها فرصة الاضطلاع"بدور الوسيط بين الشعوب الجرمانية والرومانية وبين الشرق"[1]. لذلك، وحتى ان لم تنعم الجزيرة بكامل حريتها وذلك بسبب التنازع التقليدي بين الحزبين الحاكمين للجزيرة، الحزب البيزنطي (أى الموالى لبيزنطة) والحزب الايطالى (أى

للسلطان عند عبوره نهر الفرات سنة 1071 " يا مولانا أحمد الله على ما أنعم به عليك. قال:وما هذه النعمة؟ فقال:هذا النهر لم يقطعه تركي الا مملوك، وأنتم قطعتموه ملوك"نقلا عن سهيل زكار. مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية. ص ص، 18-19.

1- هايد. تاريخ التجارة في الشرق الادنى، الجزء الاول، ص، 124.

الحزب الموالى لحكام ايطاليا العليا) ، فان ازدواجية التبعية كانت تحل لا محالة جانبا من جولنب المشكلة. فبفضل معاهدة سنة 992، وهى أولى سلسلة المعاهدات، تحققت للبندقية ثروة فى الشرق ومنحت لتجارها تخفيضات هامة فى الضرائب الموضوعة على الاستيراد والتصدير التى يجب دفعها بموانئ الدردنيل، كما منحتها ضمانات ضد تحرشات الموظفين البيزنطيين. لذلك وفى حين فتحت تبعية البندقية، التى كان يدافع عنها الحزب البيزنطى ويؤيدها، أمام سفنها العديد من الموانئ فى الشرق، فان اتفاقيات الحزب الايطالى مع حكام ايطاليا العليا مكنت البندقية من حرية"استخدام الطرق والمجارى المائية التى تصل بواسطتها الى البندقية بضائع القارة لتنقل منها الى الشرق"[1]. وهكذا يقول لوبيز تمكنت البندقية"وبالتدريج من بناء مثلث تجارى مزدهر يعتمد فى الاساس على تبادل بضائع الشرق الكمالية (التوابل والحرائر والعاج فى المقام الاول) وسلع الغرب الثقيلة (كالحديد والخشب والعنابر البحرية والعبيد) ، أكثر من ذلك ان أهل البندقية كانوا يمتلكون سلعتين هامتين، وهما الملح من بحيراتهم والزجاج من أفرانهم"[2]. وبمرور الوقت ارتفع شأن مجتمع البندقية الذى توصل، بفضل المتغيرات المشار الي بعضها، الى تحقيق"استقلاله" والى جعل البندقية، التى لا يعرف أهلها الحرث ولا يقطفون العنب، منطقة حرة وسوقا حرة مفتوحة لمنتوجات الشرق والغرب. والاهم من ذلك ان أصبح للبنادقة أسطولا قادرا على حمايتهم وعلى مد يد العون لسيد الامس.

هذا وقدهيأ النزاع البيزنطى/النورمانى، فىفترة لاحقة، فرصة أعظم لمجتمع البندقية الذى كان يسعى جادا الى التخلص من الخطر النورمانى الذى كان يهدد بقطع اتصالاتهم بالجنوب، والى الانفراد برعاية بيزنطة، سيدة ضفة المتوسط الشمالية والسيد المشترك للحوض الشرقى للمتوسط. وعلى الرغم من ان خطافا واحدا، كما يقول المثل الفرنسى، لا يأتى بفصل الربيع، ولكن التقدم الذى حققته البندقية فى مجال الانفراد برعاية بيزنطة تحقق بفضل حادثة رئيسية واحدة. ففى سنة 1082 سقطت مدينة Duzarro فى أيدى النورمان، فاستنجد الامبراطور

1- المرجع نفسه، 125.

2- لوبيز، روبيرت. ثورة العصور الوسطى التجارية (950-1350) ترجمة الدكتور محمود أحمد أبوصوة. فاليتا، شركة الجا، 1997، ص، 85

ألكسيوس كومنيسوس (1081-1118) بالبندقية وبعث اليها بالهدايا مستجيبا لكل مطالب الشخصيات التى أرسلها البنادقة الى القسطنطينية للتحالف معه. وعلى الرغم من ان مساعدة البنادقة لم تمكن البيزنطيين من استرجاع المدينة، ولكن الانتصارات التى حققتها بحرية البندقية على الاسطول النورمانى جعلت بيزنطة تمنحهم امتيازات عدة تمكنهم من مزاولة التجارة فى كل ربوع الامبراطورية من غير ان يتعرض لهم موظفو الجمارك الذين حظر عليهم تفتيش بضائعهم أو حتى مطالبتهم بأداء ضريبة على ذلك. كما فتحت هذه الامتيازات للبنادقة"مجموعة لا حصر لها من الموانئ دون ان يلتزموا بدفع أى شئ لرسو سفنهم أو لشحن أو تفريغ بضائعهم"[1]. ان تمتع البنادقة بكل هذه الامتيازات غير العادية لا يمكن ان تكون فقط بسبب الخدمة التى أسدتها البندقية لبيزنطة. ان مرجع هذه التنازلات هو أنه فى الوقت الذى كانت فيه بيزنطة تفقد الكثير من امكانياتها (فى المركز وفى الاطراف) كانت البندقية تتهيأ للانطلاق مخترقة أطراف بيزنطة,سيدة ضفة المتوسط الشمالية، ومصر الفاطمية، سيدة ضفة الحوض الشرقى الجنوبية.

فمنذ سنة 992 والبنادقة يعملون بكل جد على زعزعة السيادة البيزنطية/الاسلامية فى شرق المتوسط. فمنذ ذلك التاريخ، ولعله قبل ذلك بقليل، كان للبنادقة سفراء عاملون فى مدن حلب ودمشق والقاهرة، فضلا عن بالرمو والقيروان. ولقد نجح هؤلاء فى"تمكين رعاياهم المقيمين فى تلك المدن من عدة ضمانات"[2]. أما فى القسطنطينية فقد تجلى توغل البنادقة التجارى، خاصة بعد معاهدة 1082، فى مظاهر عدة. ولعل حصولهم على حي خاص بهم فى مكان مناسب من العاصمة يعد من أكثر هذه المظاهر دلالة. فبفضل هذا الامتياز لم يتأكد حضور البندقية السياسى فى القسطنطينية فحسب، بل أصبح بامكان سفنها التجارية ان تبحر فى البحر الاسود باتجاه"Crimea". كما ان استرداد بيزنطة لجزر كريت ورودس وقبرص حقق لتجار البندقية مرفأ حليفا وسالما لسفنهم المتجهة شرقا[3]. وبفضل هذه العلاقات"الحسنة" مع سادة الضفة الشمالية للحوض الشرقى

1- هايد، تاريخ التجارة، الجزء الاول، ص ص، 133-134.

2- ادريس، الدولة الصنهاجية، الجزء الاول، 160.

3- Ch. Diehl,Byzantium,191.

للمتوسط أصبح البنادقة وكما ذهب الى ذلك ديل"الوسيط الضرورى للتجارة بين الشرق والغرب"[1].

غير ان هذا النجاح المبالغ، حسب اعتقادى، فى تقدير حجمه لم يرجح كفة بيزنطة. صحيح ان البنادقة لم يفكروا جديا فى نصرة بيزنطة، أو فى تعزيز موقفها فى الحوض الشرقى للمتوسط. ولكن امكانياتهم المعتمدة بالدرجة الاولى على استبدال بضائع الشرق ببضائع الغرب ورفضهم"انشاء امبراطورية اقليمية قد تمكنهم من تحويل اهتمامهم من التجارة البحرية الى الزراعة"2، كانت تقف حائلا دون مساندة بيزنطة، أو الانفراد بتجارة الحوض الشرقى للمتوسط. وانطلاقا من ان تنامى احدى قوى المتوسط يؤدى آليا الى التطلع الى الضفة المقابلة فقد كان على البنادقة وحتى يحدثوا هذا التغير ان يسيطروا على احدى ضفتى المتوسط الرئيسية. ولكن البنادقة لم يجرؤوا على محاربة بيزنطة، وكان عليهم ان ينضموا الى الحملة الصليبية الرابعة سنة 1204، وهى الحملة التى دعا اليها البابا أنوسنت الثالث وساهم فيها، وبشكل فعال، كل من بلدوين التاسع أمير الفلاندرز، والامير الايطالى بونيفاس الذى انتخب رئيسا للحملة[3].

1- المرجع نفسه، 191.

2- ان ادراك قادة العصور الوسطى بتقلب العلاقة بين ضفاف المتوسط وتغيرها، ومن ان السيطرة على احدى مراكزه تتأكد أولا بضمان مناصرة الجزر الفاصلة أو ضمان حيادها على الاقل، وبالتطلع ثانيا نحو الضفة المقابلة والسيطرة عليها، تزكيها، والى حد كبير، الحملة الصليبية الرابعة. فقد كان من المخطط ان تبحر الحملة من البندقية باتجاه مصر (احدى مراكز الضفة الشرقية للمتوسط) ولكن ولاسباب يطول شرحها، ولكنها تؤكد وجهة النظر المقترحة، تغيرت وجهة الحملة الى القسطنطينية. وتغير وجهة الحملة الذى سبقه منذ فترة احتلال الفرنجة لجزيرة قبرص الذى يفيد الفرنج بفلسطين ويمدهم بقاعدة بالغة الاهمية، يكشف وبما لا يدع مجالا للشك وعي قادة العصور الوسطى بظاهرة التجاذب، وبأهميتها فى اتخاذ القرار. وحيث ان دخول بيزنطة/القسطنطينية كان، وبسبب الشراكة التى تربط الفرنجة ببيزنطة، أهون، تغيرت وجهة الحملة الصليبية الرابعة ودخل الفرنجة مدينة القسطنطينية. ولو قدر للفرنجة، خاصة وان الجزر الفاصلة أصبحت تحت سيطرتهم، ان يطيحوا بالدولة البيزنطية لتغيرت، حسب اعتقادى، خارطة الحوض الشرقى للمتوسط فى القرن الثالث عشر.

3- لوبيز، ثورة العصور الوسطى التجارية، 86.

لذلك فان عجز البنادقة عن ان يحلوا محل احدى قوى الحوض الشرقى للمتوسط يؤكد ما تم اقتراحه طوال هذه الدراسة. فنجاح البنادقة، مثلا، فى مد سيطرتهم الى الحوض الشرقى للمتوسط ماكان له ان يتحقق فى غياب العلاقة التاريخية والتى تربط هذه الضفة بتلك. فموقع البندقية كان يؤهلها، وفق منظور التجاذب ان تلعب دور السيد/المركز فى البحر الادرياتيكى. ولكن سيطرة بيزنطة على هذا البحر، وتنامى القوة النورمانية ومنافستها للبيزنطيين حلفاء البنادقة، فضلا عن منافسة أملفى وبيزا وجنوا، لم تمكن كل هذه العوامل البنادقة من استغلال هذا "القانون" مضطرين للانتقال الى الحوض الشرقى للمتوسط. وحيث ان تواجدهم بهذا الاخير لم يسنده "قانون" التجاذب المقترح فى هذه الدراسة، فان انتقالهم الى المشرق، وتحريضهم بقية"قوى" الشمال على ضرورة الاسراع فى السيطرة على هذا الحوض، لم يغير، فى بادئ الامر، كثيرا فى خارطة هذا الحوض السياسية، وبقى الامر على ما هو عليه حتى قدوم الفرنجة الى المشرق. صحيح ان دور البندقية كان اكثر من محفز، ولكن، وعلى الرغم من أهمية الدور الذى لعبه البنادقة فى الحوض الشرقى للمتوسط فى المرحلة قيد الدراسة، فان "دولة" مثل البندقية، والتى تفتقر لزاد بشرى فى موطنها الاصلى، فضلا عن حاجتها، من ناحية لاقتصاد متنوع تضرب جذوره فى الارض، ومن ناحية أخرى لمستعمرات عديدة تقع فى نطاق تنقل سفنها، هى وكما أثبتت التغيرات اللاحقة"دولة"طفيلية. لذلك كان عليها وحتى تلعب دور المنافس الحقيقى الذى بامكانه ازاحة احدى قوى الحوض الشرقى للمتوسط ان تعمل الى جانب اقطاعيي وملوك أوروبا، وان تحصل كغيرها على حصة من ثروات البلاد المفتوحة.

هذه فى عجالة بعض ملامح أوضاع الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية الاولى. والمتمعن فى عديد الحوادث التى شهدها الحوض فى الفترة قيد الدراسة يخلص الى ان العلاقات التى كانت تحكم ضفاف المتوسط ببعضها البعض نشأت فى الاساس عن مبدأ التجاذب الطبيعى لهذه الضفاف. كما ان تشابه اقتصاديات سواحل المتوسط كان دافعا قويا لتحويل هذه العلاقة من مرحلة التجاذب الى التبعية، عبر عمليتى التعاون والتكامل. غير ان هذه المرحلية لم يشهدها عالم هذا البحر، بل اقتصرت على ضفته الشمالية. وهذا التمايز قد يدفع

البعض الى الاعتقادبأن قدرة الشمال على تحقيق عمليات التعاون والتكامل فالوحدة، ثم الانطلاق نحو الضفة المقابلة، وعجز الجنوب عن القيام بهذه العمليات المتداخلة/المعقدة، يكمن فى قدرة انسان الشمال على تحدى الصعاب وتحقيق المعجزات، وفى استسلام انسان الجنوب لقضاءه وقدره وفى عجزه عن تجاوزهما. ليس هذا بالتاكيد ما أرمى اليه. فالتمايز الذى أعنيه أملته بالدرجة الاولى ظروف هذا الحوض المناخية/الجغرافية.

فالمتمعن فى خارطة هذا البحر سوف يرى بوضوح انقسامه الى حوضين رئيسيين (الحوض الشرقى والحوض الغربى) والى بحرين ثانويين (بحر الدردنيل والبحر الادرياتيكى) . كما يخلص المتمعن فى هذه الخارطة، أولا الى ان هذين البحرين وغيرهما من البحار الصغيرة تقع فى النصف الاعلى للمتوسط. وهذه الخاصية لها أهميتها فى تواصل شعوب ضفة الشمال وفى اندماجها. ويخلص ثانيا الى ان جل جزر المتوسط تقع بدورها فى النصف الشمالى. لذلك فان قربها من الشمال وبعدها عن الجنوب تولد عنه، عبر العصور، علاقة متميزة. ففى حين أصبحت هذه الجزر، بفضل عمليات التجاذب والتعاون والتكامل امتدادا طبيعيا لاراضى الشمال، فان علاقتها بالجنوب لم تتجاوز علاقة المستعمرة. فجل هذه الجزر التى احتلتها قوى الضفة الجنوبية كانت تابعة لحواضر هذه الضفة النائية. وبانتهاء التبعية التى تنتج فى الغالب عن ضعف ضفة المتوسط الجنوبية، تفشل الجماعة المقيمة فى الجزيرة فى حماية نفسها وتكون بالتالى لقمة سائغة فى فم الضفة الشمالية.

مرة أخرى، ان هشاشة اقتصاديات سواحل المتوسط وقلة كثافته السكانية لم تؤهله عبر العصور المختلفة لان يلعب دور المركز الرئيسى، اذ كان امتدادا لقوة تضرب جذورها فى أعماق هذه القارة أوتلك. لذلك فانه، وكما كانت جزر المتوسط مناطق حاجزة تحمى مقدمة ضفاف المتوسط، فان سواحل هذا الاخير كانت بدورها تلعب دور"المناطق الحاجزة" والتى تحمى مراكز هذه الضفة أو تلك. تأسيسا على ذلك، فان استقلال مدن الساحل، أو حتى ظهور بعض الامارات/الدويلات على سواحل المتوسط لم تغير كثيرا من طبيعة العلاقة بين الداخل والساحل. وفقا لهذا التصور فان كيانات منطقة الساحل لم تعمر، حسب

اعتقادى، كثيرا، اذ انها كانت وعلى الدوام عرضة لضغوطات شعوب المناطق الداخلية ولهجماتها.

الملاحظة الأخيرة وهى أنه وعلى الرغم من ان عديد المعطيات/الشواهد ذات العلاقة بفرضية التجاذب المتبناة فى هذه الدراسة قد تبدو غيرمقنعة، غير ان قدرة هذه الفرضية على تفسير بعض التغيرات التى شهدها هذا الحوض، لاحقا، قد يشفع لها هذه الهنات.

فالمتمعن، مثلا، فى النجاحات التى حققتها هذه الضفة أو تلك فى القديم، وبفعل تأثير ظاهرة التجاذب، قد يخلص الى نتيجة غير النتيجة التى توصلت اليها. ولكنه، واذا ما أعاد النظر، خاصة، فى التطورات اللاحقة/الحديثة التى شهدها حوض المتوسط قد يخلص بدوره الى ان هذه الفرضية تعد من بين أهم التفاسير القادرة على تفسير تاريخ هذا الحوض، فى العصرين الحديث والقديم، تفسيرا ديناميكيا.

فالأسبان، مثلا، وبعد ان أحكموا سيطرتهم فى الداخل، لم يكتفوا بالسيطرة على سواحل اسبانيا، بل انجذبوا نحو سواحل بلاد المغرب، وذلك بعد ان عجزوا عن ضمان تبعية جنوب ايطاليا وجزيرة مالطا. كما ان التوجه الفرنسى فى القرن التاسع عشر نحو الضفة الجنوبية كان باتجاه الجزائر. أما ايطاليا والتى فشلت فى احتلال تونس، فانها عبرت الى ليبيا!

هذا فيما يتعلق بالحوض الغربى للمتوسط. أما الحوض الشرقى، الأكثر تعقيدا، فقد شهد بدوره التطورات نفسها تقريبا. فالدولة العثمانية، سيدة الحوض الشرقى المطلقة فى القرنين السادس والسابع عشربدأت تفقد الكثير من نفوذها لصالح القوى القادمة من الشمال الغربى (الأنجليز بالدرجة الاولى) . وحيث ان هذه الاخيرة، كسابقيها ملوك وأمراء أوروبا الصليبيين، لم يكن لها موطن قدم فوق هذه الضفة أو تلك كان عليها ان تعبر الى الحوض الشرقى للمتوسط عبر جزره. لذلك ومأأن تم لها الاستقرار بالجزر الايونية أولا، ثم بقبرص حتى أصبح بامكانها التوجه نحو مصر واختراق البحر الاحمرعبر قناة السويس.

مع ذلك ان انفراط عقد الدولة العثمانية لم يمكن سادة الشمال من السيطرة المطلقة على الحوض الشرقى، بل كان عليهم وباستمرار الرجوع الى هذه الدولة فى عديد القضايا الخاصة بالبلدان المطلة على هذا الحوض. وليس من قبيل الصدفة ان يتقاسم مثلا الاتراك، وحتى يومنا هذا، مع اليونانيين جزيرة قبرص! صحيح ان الدولة العثمانية فقدت الكثير من بريقها ولكنها لم تعرف المصير الذى آلت اليه بيزنطة. وهذه الحقيقة لا يمكن حسب اعتقادى فهمها الا من خلال ظاهرة التجاذب ودورها فى تحديد العلاقات بين المركز والاطراف. فتركيا المطلة على البحرين الاسود والابيض، فضلا عن عمقها الاستراتيجى الهائل وانجذاب بلدان الاطراف الاسلامية نحوها، بالاضافة الى عوامل أخرى لا يتسع المجال لذكرها، ظلت وعلى الرغم من كل مظاهر ضعفها شريكة لسادة الشمال فى الحوض الشرقى للمتوسط. تأسيسا على ما تقدم فان أية قوة/امارة تنشأ على ساحل البحر الابيض المتوسط خارج هذه العلاقة التاريخية، فانها آيلة، لا محالة، للسقوط.

الفصل الثاني

الفصل الثاني:

ضفة المتوسط الجنوبية:
من التعاون إلى التكامل

جزيرة جربة: قراءة مغايرة للعلاقات الطرابلسية التونسية فى العصر الوسيط

إن المتمعن فى الدراسات العربية المعاصرة، والمتعلقة بجزر البحر الأبيض المتوسط الواقعة جنوبي هذا الحوض يخلص الى أن هذه الأعمال، على ندرتها، اقتصرت على وصف هذه الجزر، وعلى تعداد القوى التى انتصبت عليها فى فترات تاريخية مختلفة. كما يلاحظ بأنه، وفى حين أن الأعمال الغربية الخاصة بالجزر الواقعة فى الجزء الشمالى للمتوسط لم يكتف أصحابها بالتنويه بأهمية هذه الجزر فى تأكيد وحدة ضفة المتوسط الشمالية ودورها فى تمكين سادة الشمال من السيطرة على الحوض بأكمله، فإن الأعمال العربية لم تستوقفها اهمية الجزر الجنوبية فى تحقيق وحدة الضفة الجنوبية، فضلا عن أهمية بعضها فى الذود عن سواحل هذه الضفة، مكتفية، وكما سبقت الإشارة، بوصفها تارة، وبتأكيد تبعيتها عبر العصور لهذا القطر أو ذاك تارة أخرى.

وبصرف النظر عن سبب إغفال الأعمال العربية المعاصرة لأهمية هذه الجزر الإستراتيجية، ولدورها فى توحيد ضفة المتوسط الجنوبية، وفى صد الهجمات القادمة من الشمال، فإن إصرارأصحابها على التعامل معها على أنها إمتداد لهذا القطر أو ذاك، لم يؤكد وجهة النظر القطرية لتاريخ البلدان المطلة على ضفة المتوسط الجنوبية فحسب، بل والأهم من ذلك جعل العديد من باحثى هذه الضفة، .بما فى ذلك أولئك الذين تفتقر أقطارهم للجزر، يتجاهلون هذا الموضوع، أو عند الضرورة، يتطرقون إليه من منطلق الرؤية القطرية المعتمدة لدى الأقطار التى تتمتع شواطئها بالجزر. هذا وتجدر الإشارة الى أن هذا العيب المنهجى لا تتحمل الأعمال العربية المعاصرة، والمتأثرة لا محالة بالأعمال الغربية/الإستشراقية، .بمفردها مسؤولية انتشاره؛فالمصادر العربية الأولى تتحمل بدورها قسطا لا بأس به فى تعميم وجهة النظر هذه، وفى انتشارها. فهذه الأعمال، وعلى الرغم من انها لمحت، وفى أكثر من مكان، الى وحدة هذا الحوض ولكنها لا تنفك تؤكد علىتجزئته المستمدة من تجزئة هذا الحوض السياسية؛غير أن هذه النظرة، فى حقيقة الأمر، لم يكن مبعثها قطريا، بل كان، وكما سبقت الإشارة، سياسيا.

فالبعد السياسى هذا يتجلى، مثلا، من خلال الإسم الذى تطلقه بعض المصادر على هذا الحوض. فوفقا لهذه المصادر أطلق على هذا الحوض اسم بحر الروم تارة، وبحر الشام تارة أخرى؛وتجدر الإشارة الى أن التسمية الأخيرة بالذات يقصد بها مرة الحوض الشرقى للمتوسط، والذى كان بحرا شاميا حتى مطلع القرن التاسع، ومرة أخرى الحوض الغربى للمتوسط؛أما الجزء الذى تقع عليه بعض مدن الأراضى الليبية (سرت واجدابيا) فقد أطلق عليه الإدريسى اسم"البحر المحيط"[1].

إن غياب الإحساس شبه الكلى بكيان موحد للمتوسط فى الأعمال الأولى يتجلى أيضا من خلال تناولها لموضوع جزر هذا الحوض. فمواقع هذه الجزر تحددها تارة عملية تبعية هذه الجزيرة لهذه الضفة أو تلك؛فجزيرة قبرص مثلا، وكما يذهب الى ذلك المقدسى"هى لمن غلب"[2]. وتحدد تارة أخرى إنطلاقا من المنطقة/القطر الذى تقع قبالتها هذه الجزر. فجزيرة صقلية مثلا تقابل المغرب؛وجزيرة قبرص تقابل بلاد الشام؛أما كريت فهى تقابل مصر[3].

هذا فيما يتعلق بجزر البحر المتوسط الواقعة فى النصف الشمالى، أما جزر المتوسط الجنوبية، والقريبة من شواطيء هذه الضفة، فإن مواقعها لم تحدد بالأقاليم/الأقطار المقابلة لها، وهذا ما ينفى عن هذه الأعمال البعد القطرى الذى تلتزم به الأعمال العربية المعاصرة، بل حددت بمدن هذه الضفة تارة، وبالأرض/البر الذى تقع قبالته هذه الجزر تارة أخرى. فالبكرى مثلايذكر بأن جزيرة قرقنة تقع"قبالة مدينة سفاقس"[4]؛ أما جزيرة جربة، يقول صهحب المسالك، وفى نفس الصفحة، فإنه يفصلها عن"البرالكبير مجاز"[5].

إن تحديد البكرى لموقع جزيرة جربة بالبر بدلا من تحديد موقعها بالمدينة التى تقع قبالتها، كما سبق وان فعل وفى نفس الصفحة مع جزيرة قرقنة، أو بالقطر

1- الإدريسى، أبو عبد الله بن محمد، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، 1989، الجزء الأول، 310.
2- المقدسى، أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، 159.
3- المصدر نفسه، 27.
4- البكرى، أبو عبيد، المسالك والممالك، الجزء الثانى، 760.
5- المصدر نفسه، 760؛علما بأن البكرى يذكر فى مكان آخر نفس المعلومة مضيفا بأن هذه الجزيرة كانت على مقربة من قابس، 668.

كما نوهت بذلك المصادر نفسها، بالإضافة الى فرضية التجاذب والتبعية المتبناة فى أعمالى السابقة، كانت من بين أهم الاسباب التى حفزتنى على البحث فى تاريخ جزيرة جربة من منطلق أزعم بأنه مغاير للتفاسير التقليدية. لذلك، وعلى الرغم من شح المعلومات من ناحية، وصعوبة دراسة تاريخ علاقات جربة بمنطقة طرابلس فى العصر الوسيط من ناحية أخرى، فإن النتف المتناثرة هنا وهناك فى بعض المصادر الجغرافية، وما ورد فى بعض كتب السير التى أرخت لشيوخ جربة وطرابلس، فضلا عن المعلومات التى تضمنتها وثائق الجنيزة، أظنها مجتمعة كفيلة بأن تزود الباحث ببعض المعطيات التى قد تظهر هذه الدراسة فى مظهر متماسك، والأهم من ذلك قادرة على تفسير علاقات جربة بطرابلس، وكما يقترح العنوان، وفق رؤية مغايرة.

إن المتصفح للمصادر العربية الأولى يخلص الى أن مدينة طرابلس، والتى تعتبر محطة تجارية هامة لتجارة الشرق والغرب والشمال والجنوب، كانت، وبحكم موقعها الجغرافى، تفضل التعامل مع بلاد المغرب. فالإتصال بشرقى الأراضى الليبية كان لا محالة مستمرا، ولكنه كان اتصالا محتشما. فدخول القوافل مثلا الى الاراضى الليبية من مصر (أهم أسواق العالم القديم) كثيرا ماكان يتم عن طريق برقة- زويلة. ولعل فى تجاهل العديد من المصادر العربية الأولى لمدينة لبدة، أو الإكتفاء، وفى عجالة، بالتنويه بما كانت عليه هذه المدينة فى القديم، ما يؤكد تواضع عمليات الإتصال بين شرقى إقليم طرابلس وغربيه فى العصر الوسيط. [1]

ولكن الأمر، وكما سبقت الإشارة، يختلف كلية عندما يتطرق المرء الى موضوع علاقة مدينة طرابلس بالمدن والقرى التى تفصلها عن الجنوب التونسى. فهذه العلاقة لا تستوقف المصادر العربية الأولى، ولكن المرء يستشفها من المعلومات التى تتضمنها مصادر، رغم تباينها/تباعدها فى الزمان والمكان، إذأن

1- هذا وتجدر الإشارة الى أن وقوع مدينة طرابلس على البحر، وتمتعها بميناء بحرى قادر على إستقبال السفن طوال مو سم الإبحار (أبريل-نوفمبر)، فضلا عن خصوصية عملية التنقل البحرى بين شرقى الأراضى الليبية وغربيها المقترحة فى دراسة"Fulford " والتى تؤكد بأن تنقل السفن بين شرقى الأراضى الليبية وغربيها عن طريق البحر كان بسيطا إذا ما قورن بعملية التنقل بين طرابلس وغربى المتوسط، نخلص الى أن التوجه نحو الغرب كان أكثر من معتاد.

بعضها صنف فى القرن الرابع، أو الخامس للإسلام فى المشرق، أوفى القرن الثامن فى بلاد المغرب، فإنها تبدو فى مجملها مكملة لبعضها البعض. فرحلة التجانى (القرن الثامن) والتى تتضمن عديد الروايات/النصوص المستخلصة من أعمال إبن حوقل، والبكرى، والإدريسى، وغيرهم كثير، فضلا عن وقوف صاحبها فى رحلته هذه على إمكانيات هذه المنطقة ومعاينتهاتجعل الرجوع إليها أمرا أكثر من ضرورى.

فمن خلال هذه الرحلة، وهى الرحلة التى صحب فيها التجانى كبير الدولة وشيخ الموحدين الأمير أبويحى زكرياء بن اللحيانى فى رحلته الى طرابلس، يخلص المرء الى أن المنطقة الساحلية الممتدة بين مدينة طرابلس وزوارة الصغرى كانت عبارة عن سلسلة من القرى المتصلة. وعلى الرغم من أن قرى صغيرة كانت تفصل زوارة الصغرى عن مدينة قابس، فإن إمكانيات هذه المنطقة، إذا ما قورنت بإمكانيات إقليم طرابلس، كانت فى غاية التواضع. فالمتجه من مدينة قابس الى طرابلس، وفق رواية التجانى التفصيلية، ملزم طوال رحلته فى الجنوب التونسى، خاصة بعد مغادرته مدينة قابس، بالتوقف فى أماكن/مراحل محددة يفتقر بعضها لأهم مقومات الحياة، وأعنى بذلك الماء[1].

ولكن وما أن يشرع التجانى فى وصف المنطقة التى تفصل مدينة طرابلس عن زوارة حتى تأخذ المعلومات شكلا مغايرا، شكلا يؤكد تنوع إقتصاديات الإقليم وسهولة التنقل بين ربوعه. فالقادم من الجنوب التونسى لا بد له من التوقف عند زوارة الصغرى، وهى"قرية ذات نخيل كثير باسق الإرتفاع، وماؤها فى غاية العذوبة"[2]. وعلى الرغم من أن المسافة بين زوارة الصغرى والكبرى لا تشكل مرحلة، غير أن التجانى يؤكد على أهميتها مشيرا الى أنها"قرية أضخم من الأولى واكبر غابة"[3]. أما حصن تليل، والذى لايبعد بدوره كثيرا على زوارة الكبرى ففيه"دور كثيرة معمورة، وما تحت التل سواني ومزارع، وليس هناك شجرة

1- التجانى، أبومحمدعبد الله بن أحمد، رحلة التجانى، قدم لها حسن حسنى عبد الوهاب، تونس/طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1981، 205.

2- المصدر نفسه، 207.

3- المصدر نفسه، 210.

واحدة، وإنما معتمدهم فى سكناهم بذلك القصر على ما يزدرعونه بتلك السواني، وبها آبار معينة، إلا أن ماءها شريب وليس العذب منها إلا مـابين التـل والبحـر"[1].
هذا وإن كانت المصادر الأولى، البكرى علـى وجـه التحديـد، تطلـق علـى المنطقـة الممتدة بين طرابلس وصبرة (صبراته الحديثة) "بلد زواغة"[2]، فإن التجانى يقصر هذه التسمية على قرية تقع على بعـد سـتة أميـال مـن قصـر تليـل. فزواغـة هـذه يقـول صاحب الرحلة "أكبر قرية فى ذلك الموضع وأضخمها، وبها نخل كثير"[3].

هذا ويسترسل صاحب الرحلة فى إستعراض أسماء القرى العـامرة والتـى تفصـل زوارة الصغرى عن مدينة طرابلس؛ ويكفـى فـى هـذه العجالـة أن أنـوه ببعـض مـا ذكـره التجـانى عـن إمكانيـات صرمـان، والزاويـة، والمايـة، وزنـزور. فعلـى قريـة صرمان، يقول التجانى"غابة زيتون ممتدة"[4]؛ وحول زاوية أولاد سهيل يوجد"شـجر كثير من التين والرمان والخوخ، وغير ذلك"[5]. وعلى الرغم من أن قرية المابة"صغيرة وبها نخل يسير"[6]، غير أن قربهـا مـن زنـزور جعلهـا مبيتـا مناسـبا لمـن أراد دخـول زنزور فى الصباح الباكر. فهذه الأخيرة، يقول صاحب الرحلة"غابة متسعة الأقطار ملتفة الأشجار، وبها مياه عذبة وأكثر شجرها الزيتون، وأكثره من الغـرس القديـم على نحو زيتون الساحل، وليس يعظم شجره فى موضع من المواضع مـا يعظـم فـى هذه القرية، وبها أيضا شجر التفاح والرمان والعنب والتين كثير"[7].

وما أن يترك المسافر قرية زنزور خلفه بإتجاه الشرق حتى تلوح له عن بعد مدينة طرابلس البيضاء؛وتكاد تجمع المصادر المتقدمة والمتأخرة على السواء علـى ان مدينـة طرابلس تعد من أهم مدن المنطقة الممتـدة مـن خليـج سـرت الى خليـج قـابس فـى العصر الوسيط. فطرابلس، وكما يذهب الى ذلك مؤلف كتاب الإستبصار، كانت

1- المصدر نفسه، 211.
2- البكرى، أبوعبيد، المسالك والممالك، الجزء الثانى، 665.
3- التجانى، رحلة التيجانى، 211.
4- المصدر نفسه، 319.
5- المصدر نفسه، 212.
6- المصدر نفسه، 214.
7- المصدر نفسه، 214-215.

مدينة كبيرة[1]. ووفق نص البكرى فإنها كانت"كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتين جليلة فى شرقيها، ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير"[2]. كما يضيف البكرى فى مكان آخر من مؤلفه بأن لهذه المدينة"فحص يسمى سوبجين يصاب فيه بعض السنين للحبة مائة حبة"[3]. أما نص إبن حوقل فهو أكثر أهمية، وهذه الأهمية تكمن فى وفرة المعلومات التى يتضمنها النص وفى تنوعها. فهذه المدينة البحرية"كان لها فى ربضها أسواق كبيرة، فنقل السلطان بعضها الى داخل السور، وهى ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية.... وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره: كالخوخ الفرسك، والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان، وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع. . الى مراكب تحط ليلا ونهارا ترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحا ومساء من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم"[4]. كما يلمح ابن حوقل لاحقا الى نقطة فى غاية الأهمية؛فإزدهار مدينة طرابلس لم يكن بسبب تنوع امكانياتها الإقتصادية فحسب، بل يعود أيضا الى حسن معاملة أهلها للغرباء التى شجعت هؤلاء على تفضيلهم على غيرهم من تجار إقليم طرابلس وجنوب تونس (جربة، وقابس) . فسكان طرابلس يقول ابن حوقل"قوم مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال، متميزون بالتجمل فى اللباس وحسن الصور والقصد فى المعاش، الى مروآت ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة، الى مراء لا يفتر وعقول مستوية وصحة نية ومعاملة محمودة، ومذهب فى طاعة السلطان سديد، ورباطات كثيرة ومحبة للغريب أثيرة ذائعة. ولهم فى الخيرمذهب من طريق العصبية لا يدانيهم أهل بلد، إذا ما وردت المراكب ميناهم عرضت لهم دائما الريح البحرية، فيشتد الموج لإنكشافه ويصعب الإرساء، فيبادر

1- مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد، العراق، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية (طبعة خاصة بالمشرق العربى) 1986، 110.

2- البكرى، المسالك والممالك، الجزء الثانى، 654.

3- المصدر نفسه، الجزء الثانى، 655.

4- ابن حوقل، أبوالقاسم النصيبى، صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1979، 71.

أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين، فيقيد المركب ويرسى به فيأسرع وقت بغير كلفة لأحد ولا غرامة حبة ولا جزاء بمثقال"[1].

إن النتيجة المبدئية المستخلصة من هذا التمهيد البسيط هي أن تجانس إمكانيات هذه المنطقة الإقتصادية، فضلا عن غياب أية معوقات طبيعية قد تفصل هذه القرية أوتلك عن بقية القرى، أكدت ظاهرة توجه سكان منطقة طرابلس غربا. إن هذه الظاهرة لم تيسر عملية التنقل بين قرى إقليم طرابلس فقط، بل شجعت سكانه على التنقل بين طرابلس وجنوب تونس ؛فهذا الأخير كان بمثابة المحطة الضرورية لمن أراد التوجه نحو شمال تونس، ونحو أسواق بلاد المغربين الأوسط والأقصى. وحيث إن هذه الدراسة تبحث في علاقة طرابلس بجزيرة جربة، وحيث إن هذه الأخيرة تستمد بعض قوتها من مدينة قابس"حاضرة الإقليم وقطبه وروحه وقلبه، ومركز دائرته التي عليها يدور محيطه"[2]، رايت أن أنوه في هذا السياق ببعض إمكانيات هذه المدينة.

تذهب العديد من المصادر الى أن مدينة قابس تعد من أهم مراكز الجنوب التونسي الحيوية طوال العصر الوسيط. فهذ المدينة كانت"ذات مياه جارية وأشجار متهدلة وفواكه رخيصة... ولهم من الزروع والضياع ما ليس مثله لمن جاورهم، الى زيتون وزيت وغلات.... ولها أسواق في ربضها وجهاز من الصوف كثير، ويعمل بها الحرير الكثير الغزير، وبها جلود تدبغ بالقرظ وتعم أكثر المغرب، فتأتي من طيب الرائحة ونعمة اللمس.... وهي خصبة في أكثر أوقاتها"[3].

هذا ما يذكره ابن حوقل عن مدينة قابس، غير أن اللافت للنظرهو أن ابن حوقل لم يأت على ذكر جزيرةجربة!كما ان المتصفح لكتاب المسالك والممالك للبكري يتعجب من صغر حجم المعلومة التي خص بها جزيرة جربة. فهذه الأخيرة يقول البكري"هي على مقربة من قابس. . . فيها بساتين كثيرة وزيتون كثير"[4]. وحيث إن جزيرة جربة هي إحدى محاور هذه الدراسة، فإن معلومات بهذا الحجم

1- المصدر نفسه، 72.
2- مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، 113.
3- المصدر نفسه، 72.
4- البكري، كتاب المسالك والممالك، الجزء الثاني، 668.

لا أظنها قادرة على تقديم العون فى بناء فرضية هذه الدراسة. لذلك، وعلى الرغم من مآخذ الإستعانة بأعمال متأخرة، غير ان شحة المعلومات التىنقلتها المصادر العربية الأولى جعلتنى أستعين مرة أخرى ببعض الأعمال المتأخرة، والتى تضمنت معلومات متنوعة، ولكنها لا تناقض ما ورد فى المصادر العربية الأولى. فهذه الجزيرة وفقا للتجانى مثلا هى"من أعظم الجزائر خطرا، وأشهرها فى سالف الزمن عمارة وذكرا، طولها من المغرب الى المشرق ستون ميلا.... وأما عرضها فمختلف، فعرض الرأس الغربى منها عشرون ميلا وهو الطرف الواسع.... وعرض الرأس الشرقى منها خمسة عشر ميلا، وهو أضيق مكان بها، وهى أرض كريمة المزارع عذبة المشارع، وأكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين، وبها أصناف كثيرة من سائر الفواكه، إلا أن هذه هى أكثر ثمرها وعليها مدار غلاتها، وغيرها من كرائم الأرضين لا يقاربها علىالجملة فى ثمارها أو يساويها، وتفاحها لا يوجد فى جميع بقاع الأرض له نظير لما يوجد بها منه صفاء وجفافا وطيب مذاق وعطارة وإستنشاق.... واختصت هذه الجزيرة أيضا دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف التى ليست بإفريقية لما ينسج من أثوابها نظير" [1].

وعلى الرغم من أن نص الجربى كان بدوره مقتضبا، والى حد ما مناقضا لما ذكره صاحب الرحلة، ولكنه تضمن بدوره أهم عناصر نص التجانى. فوفقا لأبى رأس الجربى فإن غالب أرض الجزيرة كان رملا؛أما مياهها فتغلب عليها الملوحة. ولكن النص يفيد لاحقا بأن غالب أشجار الجزيرة كان"النخيل والزيتون وبها اجنة العنب والتين والمشمش، والتفاح كثيرة بأرض الرمال"[2]

إن القراءة السريعة للنصوص المتعلقة بالمدن والقرى الممتدة من طرابلس الى قابس مرورا بجزيرة جربة، تفيد بأن هذه المنطقة المحاذية للساحل خاصة، لا تختلف كثيرا فى مكوناتها الطبيعية والإقتصادية. إن هذه الخاصية التى ساعدت سكان المنطقة، عبر العصور، على التنقل والإستقرار فى ربوع هذه المنطقة، تأكدت بفعل

1- التجانى، رحلة التجانى، 121-122.

2- الجربى، محمد أبو راس، مؤنس الأحبة فى أخبار جربة، حققه ومهد له محمد المرزوقى، تونس، المطبعة الرسمية، 1960، 82.

عوامل أخرى، أخص بالذكر منها العامل الدينى/التعليمى، والعامل البشرى/القومى.

فالمتصفح لكتب التاريخ والسير، والتى إنطلقت فى تناولها لخلفية منطقتى طرابلس وجنوب تونس من منطلق دينى/تعليمى، معللة عمليات التنقل بين المنطقتين من زاوية دينية صرفة، سوف يخلص الى أن هذه الظروف كانت بدورها حاسمة فى إستمرار تواصل سكان قرى ومدن هذه المنطقة. فبحكم فتح المسلمين منطقة طرابلس وإستقرارهم بها قبل الشروع فى فتح إفريقية؛وبفضل مساعى الأمير عقبة بن نافع الذى كان يتنقل بين برقة وزويلة منذ رحيل الأمير عمرو بن العاص، إنضوت العديد من القبائل المغربية تحت لوائه. إن دخول هذه القبائل فى حلف مبكر مع المسلمين ضمن لقادة الفتح فى هذه المرحلة (عبدالله بن أبى السرح، ومعاوية بن حديج) تبعية طرابلس، وسهل لهم دخول جنوب تونس. فقبائل هذه المنطقة كانت تربطهم بالقبائل المغربية المصاحبة للجيوش الإسلامية خلفية إجتماعية وإقتصادية واحدة[1]. لذلك، ونتيجة بطء عمليات الفتح الإسلامى، فضلا عن إستمرارالجيوش المشرقية/المغربية فى العمل سوية، سواء فى تأكيد تبعية هذه المنطقة الممتدة من طرابلس الى مدينة قابس، أو فى التوجه نحو الشمال، تأكد تجانس هذه المنطقة، وعلى مستويات مختلفة.

إن تجانس إمكانيات المنطقة المختلفة، فضلا عن تنامى دور المؤسسات الإسلامية ومساهمتها فى إزالة العديد من الموانع، لم يسهل عمليات الفتح الإسلامى شمالى (Byzacena) فحسب، بل جعلها، وحتى بعد الإنتهاء من بناء مدينة القيروان (50–55هـ)، منطقة نفوذ وتراجع إسلاميين. فعلى الرغم من إن إفريقية خرجت بوفاة عقبة بن نافع (65هـ) عن سلطان المسلمين، فإن صاحب قفصة يخلص أسرى المسلمين الذين وقعوا فى يد كسيلة ويبعث بهم الى القيروان[2]. إن إغفال المصادرعن التنويه، مثلا، بدور مختلف المؤسسات الإجتماعية

1– حول توزيع القبائل المغربية واستيطانها فى شمال افريقيا، انظر اطروحة عبد الواحد ذنون طه غير المنشور:
The Muslim conquest and the settlement of North Africa and Spain. University of Exter, UK, 1978.

2– ابن الأثير، عزالدين ابو الحسن، الكامل فى التاريخ، الجزء الرابع، 108.

والإقتصادية، والسياسية أيضا فى تأكيد تجانس هذه المنطقة، لا يعنى بالضرورة غياب هذا البعد. فإهتمام المصادر العربية، وكما جرت العادة، كان منصبا على الأحداث الكبرى، كعمليات الفتح، وأسماء الخلفاء، وأمراء الجيش، وعدد الأسرى، ونوعية الغنائم وأحجامها؛أما الأحداث الصغيرة والمتعلقة بالمؤسسات الإجتماعية والإقتصادية، أو بحياة الأفراد فإنها لا توليها كبير إهتمام. مع ذلك فإن المتمعن فى بعض ما تذكره هذه المصادر عرضا حول إمكانيات المنطقة، أو حول حياة الأفراد وأنشطتهم المتنوعة، يخلص الى أن تعددية العوامل وتنوعها فى المنطقة الممتدة ما بين طرابلس وجربة كانت تعمل وفق إطار تناغمى/تكاملى.

ليس هذا فحسب، بل إن إنقسام بلاد المغرب، مثلا، الى ثلاثة أقاليم: إقليم ساحلى، وآخر صحراوى، وثالث تلى/جبلى لم يفقدها طابعها التكاملى. فإنقسام المغرب الى مجموعة من الأقاليم هى حقيقة تؤكدها المصادر، غير أن ذات المصادر تفيد فى الوقت نفسه، بأن تنوع أقاليم بلاد المغرب وإختلاف تسمياتها، فضلا عن حركات سكانها الإنفصالية، لم تقف حائلا أمام تنقل الأفراد والأفكار بين مختلف أقاليم المغرب. لذلك فإن التركيز على الإقليم الساحلى هو ضرورة إقتضتها طبيعة هذه الدراسة، وليست دعوة، على غرار أعمال المستشرقين، الى التأكيد على طابع بلاد المغرب التجزيئى المستمد من إنقسامه الى ثلاثة أقاليم. فالأحداث الكبرى التى شهدتها المنطقة طوال العصر الوسيط تفند هذا الزعم، وتؤكد بأن إنقسام المغرب الى ثلاثة أقاليم لم يمنع، وعلى مر العصور، سكانه من التنقل بين هذه الأقاليم، أو الإستقرار تارة فى هذا الإقليم، وأخرى فى ذاك. فالمسلمون الذين دخلوا المغرب إبان عمليات الفتح الأولى سلكوا /إخترقوا إقليم الساحل تارة، وإقليم الصحراء تارة أخرى. كما أن المدن التى شيدوها (القيروان وتونس مثلا) أو المدن القديمة التى نزلوا بها (طرابلس وزويلة) تؤكد بدورها هذا التوجه. بالإضافة الى ذلك، إن قيام دول المغرب الكبرى (الفاطميون، والمرابطون، والموحدون) أو حتى سقوطها لم يقترن بعامل تنوع أقاليم المنطقة. الأهم من ذلك، أنه وحين عجزت بعض دول المغرب، فى مرحلة لاحقة، عن تحقيق وحدة المغرب، فإن مجال نفوذها لم ينحصرفى إقليم محدد.

إن ظاهرة التكامل المقترحة هذه، والتى تحد من ظاهرة تباين أقاليم بلاد المغرب يمكن، فى إعتقادى، تفسيرها بأكثر من عامل؛فبالإضافة الى العوامل السابقة، فإنه يمكن إقتراح العامل القومى، والذى لا يقل أهمية عن غيره من العوامل المقترحة فى هذه الدراسة. هذا وتجدر الإشارة الى أن هذا العامل الأخير لا يخضع الى التصنيف العرقى الذى يؤكده المستشرقون بمناسبة وبدون مناسبة، بل يخضع لظروف تاريخية جعلت القبائل المغاربية ذات الأصول المشرقية تدخل، وفى فترات متباعدة زمنيا، لمناطق مختلفة من بلاد المغرب. فالمغاربة الأول، يقول ابن عبد الحكم كانوا فى فلسطين، ثم قدموا الى المغرب"فتقدمت زناته ومغيلة الى المغرب، وسكنوا الجبال، وتقدمت لواته فسكنت انطابلس، وهى برقة، وتفرقت فى هذا المغرب، وانتشروا فيه حتى بلغوا السوس، ونزلت هوارة مدينة لبدة، ونزلت نفوسة الى مدينة سبرت" [1].

وبظهورالإسلام، وبتقدم الجيوش الفاتحة نحو المغرب، تأكد مرة أخرى مبدأ التوزيع السكانى فى أقاليم المغرب الثلاث. فالمتمعن، مثلا فى الجيوش الإسلامية للمرحلة السابقة لإنشاء مدينة تونس، يلاحظ بأن جل هذه الجيوش ومن صحبها من نساء وأطفال كانوا يقيمون، جنبا الى جنب، مع مغاربة اقليمى الصحراء والتل. وماان انتهى الفاتحون من بناء مدينة تونس ودار الصناعة، التى تطلبت استقدام الف اسرة قبطية، حتى سارعت الى هذه المدينة الساحلية الجديدة قبائل مشرقية ومغربية، بعضها كان فى الأصل يقيم فى اقليمى التل والصحراء، أما بعضها الآخر (جيش حسان بن النعمان) فقد قدم رأسا من بلاد الشام[2].

1- ابن عبد الحكم، أبوالقاسم عبد الرحمن، فتوح مصر والمغرب، حققه وقدم له د. على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، 1995، 197؛هذا كما يؤكد البلاذرى الأصل المشرقى للمغاربة، فهؤلاء، يقول صاحب كتاب الفتوح"هم من الجبارين الذين قاتلهم داود عليه السلام، وكانت منازلهم على ابادى الدهر فلسطين، وهم أهل عمود، فأتوا المغرب فتناسلوا به"انظر، ابو لحسن البلاذرى، فتوح البلدان، 222.

2- هذا وتجدر الإشارة الى أنه، وبصرف النظر عن الدور الذى لعبته قبائل بنى هلال فى المنطقة، فإن ما يهمنا فى هذا السياق هو أن قبائل بنى رياح، وبنى زغبة التى دخلت إفريقية فى القرن الخامس للإسلام، إستقرتا فى طرابلس، وقابس.

واذا ما أضاف المرء الى عامل تجانس سكان المنطقة، عامل تكامل نشاط سكانهاالإقتصادى، يخلص الى رؤية مغايرة عن تلك المتبناة خاصة من المستشرقين التقليديين. فهؤلاء، وتأسيسا على ماتضمنته مصادرنا من مقترحات تؤكد انقسام المجتمع المغربى الى حضر وبدو، لم يكتفوا بتبنى هذا الرأى الذى يخدم أطروحاتهم الداعية الى تأكيد تجزئته، بل راحوا يزعمون بأن سكان الساحل، الذين يمارسون الزراعة والتجارة ويتمتعون بزاد حضارى نتج فى المقام الأول عن تواصل هذه المنطقة بالعالم الخارجى، كانوا وعلى الدوام من الغزاة؛أما سكان المغرب الداخل، يقول هؤلاء، فإن نشاطهم المحكوم بطبيعة مناطق حلهم وترحالهم التى تفتقر الى أهم مقومات الحياة، فإن نشاطهم اقتصربالإضافة الى رعى الإبل، علىنهب المناطق الساحلية وغزوها.

إن تباين إمكانيات شطرى المغرب، وتنوع أنشطة سكانيه هى حقيقة لا يمكن للمرء ان يتجاهلها، ولكن المتمعن فى خارطة المغرب يخلص الى رأى مغاير؛ فحدود المغرب الداخل ليست كلها مفصولة عن حدود مغرب الساحل. ففى مناطق عديدة من ساحل ضفة المتوسط الجنوبية تتداخل حدود الساحل مع حدود الصحراء، ويكون الفصل، بالتالى، بين هذين الإقليمين، أوبين نشاط سكانهما فصلا متعسفا. ففى سياق حديث صاحب الإستبصار، مثلا، عن مدينة قابس يفيد بأنها"مدينة بحرية صحراوية، والصحراء منها قريبة، فيقال انه ما اجتمع فى مائدة رجل 3أشياء متضادة المواضع الا فى مائدة من يسكن قابس: يجتمع فيها الحوت الطرى، ولحم الغزال الطرى، والرطب الجنى"[1]. وما يصدق، فى حقيقة الأمر، على مدينة قابس ينسحب على العديد من المدن والقرى الممتدة من مدينة طرابلس الى خليج قابس.

كما يمكن للمرء ان يستشهد فى هذا السياق بمقالة الأستاذ كاهين التى تنفى من ناحية عن سكان الصحراء طابعها التخريبى، مؤكدة من ناحية أخرى، تكامل النشاط الإقتصادى لسكان الساحل والصحراء. فسكان الصحراء من البدو لم يكونوا على الدوام معادين للأنماط الإجتماعية الأخرى؛ والأمثلة التى تفيد بتكامل الأنشطة البدوية، وانشطة سكان الساحل الزراعية، على سبيل المثال، كثيرة.

1- مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار، 113.

فقطعان الماشيةوغيرها، يقول كاهين، والتى ترعى فى الأراضى غير المستغلة زراعيا تساهم من ناحية فى اخصابها، وفى زيادة قيمتها من ناحية أخرى[1].

تأسيسا على هذه الخصوصية يمكن للمرء أن يزعم بأن انقسام المغرب الى ثلاثة أقاليم لم يمنع سكانه من التنقل والإستقرار فى المنطقة الممتدة من طرابلس الى جزيرة جربة؛فالمتمعن فى طبيعة النشاط المزاول فى هذه المنطقة (الزراعة، والتجارة، والرعى) يخلص الى أن السمة المميزة لهذه الأنشطة، وكما سبقت الإشارة، هى سمة التعاون التى تولد عنها تكامل هذه المنطقة، وربما وحدتها. لذلك، فإن من يدرس بعض سير مشايخ منطقة طرابلس، وجزيرة جربة، يخلص الى أن التجانس/التكامل المقترح فى هذه الدراسة هو أمر لا يتطلب كبير جهد للإثبات. فكتب السير ما تنفك تؤكد بأن رجالات الدين، وبصرف النظر عن الدوافع التى تقترحها هذه الأعمال، كانوا فى حركة مد وجزر بين طرابلس وجزيرة جربة.

فالمتصفح لكتاب طبقات مشايخ المغرب للدرجينى، يكاد يجزم بأن هذا العمل كان قد وضع خصيصا لمشايخ منطقة طرابلس وجنوب تونس؛فالتراجم التىخص بها مشايخ افريقية (القيروان) والمغرب الأوسط (وارجلان) كانت قليلة جدا. ودون الدخول فى تفاصيل أسباب تفاوت حجم وعدد تراجم مشايخ بلاد المغرب من منطقة الى أخرى، أرى من الأفضل الإنتقال لموضوع سير مشايخ منطقة طرابلس وجزيرة جربة، وهى سير مختارة من قرون مختلفة، ولكنها تؤكد فى مجملها مدى ترابط هذه المنطقة، وتكاملها. هذا وتجدر الإشارة الى اننى تعمدت، ولأسباب إقتضتها هذه الدراسة، تجاوز أعلام ما قبل القرن الرابع للإسلام. ففى المرحلة السابقة للقرن الرابع كانت جربة وأجزاء كبيرة من الجنوب التونسى، ومنطقة طرابلس، بإستثناء الشريط الساحلى، تخضع للإمارة الرستمية. لذلك فاختيار مشايخ من هذه المرحلة قد تفسر ظاهرة التكامل بين سكان منطقة طرابلس والجنوب التونسى من منطلق سياسى صرف أملته ظروف تبعية هاتين المنطقتين (طرابلس وجربة) لأئمة تيهرت بالمغرب الأوسط. لذلك، وكما سبقت الإشارة

1- C. Cahen "Quelques mots sur les Hilaliens et le Nomadisme" In J. E. S. H. O, 1968, 131.

سوف يقتصر العرض على بعض التراجم المختارة من مرحلة لم يكن النفوذ السياسى هو الباعث الأساسى لتكامل المنطقتين وتجانسهما.

فمن خلال سيرة الشيخ أبو مسور اليراسنى يتضح للمرء كيف ان عملية التنقل بين منطقتى طرابلس وجزيرة جربة، والإقامة أيضا فى احدى المنطقتين كانت تتم وبشكل طبيعى. فهذا الشيخ الذى قدم الى طرابلس من جربة، كان قد تلقى تعليمه"بجبل نفوسة... وكان حينئذ مقلا من المال، فكابد من ضيق العيش فى صبر وكتمان ما لم يكابده غيره... ولما أراد السير الى أهله إشتغل بإنتساخ الكتب... وفى المدة التى عزم فيها على المسير تزوج امرأته النفوسية... فتزوجها وقدم بها الى جربة" [1]. كما ينقل أبو راس، صاحب كتاب مؤنس الأحبة فى أخبار جربة، نفس السيرة، مضيفا اليها فى ذات الوقت جزئية أراها فى غاية الأهمية. فهذه الجزئية تقترح بعدا آخر لظاهرة التنقل بين مختلف ربوع هذه المنطقة غير البعد التعليمى. فظاهرة التنقل وفق هذه الجزئية لم تكن مرتبطة بالعامل السياسى فحسب (كتبعية جزيرة جربة لطرابلس أو تبعية هذه الأخيرة مثلا لتونس والتى لا تلغى العلاقة التكاملية بين جربة أو الجنوب التونسى وطرابلس) بل كانت مرتبطة أيضا بتكامل هذه المنطقة، رغم امتداد مجالها الذى شمل أجزاء من أقاليم الساحل والتل والصحراء. فالسيرة هذه والتى ننقل عنها فقط ماتجاهله كتاب الدرجينى، يستشف منها أنه نادرا ما ينشد سكان منتطقتى طرابلس وجربة /الجنوب التونسى فى سنوات الشدة مساعدة المناطق الأخرى. فأبو مسور هذا والذى تناقلت كتب السير أخباره، كان قد انتقل، وكما سبق وان المحت، من جربة الى منطقة طرابلس للدراسة؛وما ان ينهى دراسته، والتى تطلبت فى بادئ الأمر مساعدة مشايخ جبل نفوسة، حتى يزاول مهنة انتساخ الكتب التى يبدو انها حسنت كثيرا من أوضاعه؛ فيتزوج من نفوسية ويتخذ من منطقة الجبل موطنا له. ولكن وما ان يعلم بالشدة التى المت بالجزيرة حتى يسارع فى العودة الى الجزيرة صحبة زوجته النفوسية وابنه فصيل. إن الظروف الإقتصادية التى كانت عليها الجزيرة فى تلك الفترة هى التى استدعت عودته السريعة هذه. فالسنة التى دخل فيها أبو مسور الجزيرة يقول

1- الدرجينى، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، حققه وقام بطبعه إبراهيم طلاى. 1974، الجزء الأول، 157-158.

الجربى كانت سنة" مسبغة، فأنفق على فقراء الجزيرة، ويحمل اليهم الطعام الى منازلهم فعرفوا قدره، وبنى الجامع الكبير الذى هو الآن بايديهم، و لم يتمه، فأكمله بعد وفاته ولده فصيل" [1].

كما يمكن الإستشهاد بسيرة الشيخ أبوصالح بن القاسم اليراسنى، والتى تفيد بان ظاهرة تقديم العون لم تكن على الدوام فى اتجاه واحد، اذ يبدو ان أهل جربة كانوا على استعداد لتقديم العون لأهل طرابلس فى سنوات الشدة؛ صحيح ان امكانيات منطقة طرابلس، كما سبق وان بينت فى بداية هذه الدراسة، تفوق امكانيات جربة، الا ان تجانس هذه المنطقة ووقوع سكانها تحت مظلة التعاون التى ميزت وعلى مر العصور العلاقة بين منطقة طرابلس والجنوب التونسى/جزيرة جربة، جعلت أهل الجزيرة يتعاطفون مع سكان طرابلس فى سنوات الشدة. أقول يتعاطفون لان الرواية التى انقلها لا تشير صراحة الى موضوع تقديم أهل الجزيرة العون لأهل طرابلس، بل يستشف منها . فتباطؤ قدوم مشايخ جربة لمنطقة طرابلس فى سنوات الشدة، تقول هذه الترجمة، تسبب فى انتشار الفساد وتضييع الحقوق والعمل بها. ان عذر سكان الجبل، يقول زيرى بن كملين، أحد وجهاء نفوسة، بيّن. فالمرأة، يقول هذا الأخير"اذا لم يغشاها زوجها ابتغت السفاح، وأنتم اذا لم تأتونا، اتتنا مستاوة"[2].

إن التراجم التى تدعم مقترح تكامل منطقتى طرابلس وجربة كثيرة، ولا أرى ضرورة للإسترسال فى ذكرها كلها وسأكتفى فى هذا السياق بالإستشهاد بترجمة الشيخ اسماعيل الجيطالى. فهذا الأخير، يقول الجربى، كان من سكان غريان، فافترى عليه سكان طرابلس"و لم يمكنه الا الإنتقال عنهم، وكان له معرفة بابن مكى عامل قابس وكانت جربة تحت نظره، فانتقل الى جربة"[3]. هذا وتجدر الإشارة الى ان رواية الشماخى لهذه السيرة قد تضمنت جزئية غفل عن ذكرها الجربى، وهى جزئية تلقى المزيد من الضوء على ظاهرة التواصل بين منطقة طرابلس

1- الجربى، أبو راس، مؤنس الأحبة، 89.

2- الشماخى، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، تحقيق ودراسة محمد حسن، تونس، منشورات كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، 1995، 337.

3- الجربى، مؤنس الأحبة، 91.

وجربة من منطلق حيوى يعكس تعددية عوامل التكامل المقترحة ويؤكدها. فاسماعيل هذا، وكما تقترح رواية الشماخى، كان تاجر عبيد"نزل (من غريان) ومعه عبيد أراد بيعهم بمدينة طرابلس"[1]. وبصرف النظر عن سبب اعتقاله وزجه السجن، فان الإفراج عنه لم يتم عن طريق أناس عاديين، أو حتى عن طريق مشايخ المنطقة، بل كان عن طريق ابن مكى صاحب قابس الذى تشفع" فيه عند صاحب طرابلس، فأطلقه"؛ ولأن من طبائع التجارعدم الإرتباط بمكان/بموطن محدد، ولأن محور تجارة العبيد طرابلس-الجنوب التونسى كان تحت نظر صاحبى طرابلس وقابس، فان الجيطالى الذى لم يعد يرغب فيه فى مدينة طرابلس يسافر" نحو جربة"[2].

إن تجانس هذه المنطقة وتكاملها تؤكدهما، أيضا، رسائل الجنيزة. وعلى الرغم من أن هذه الوثائق تتضمن، فى المقام الأول، مراسلات يهود العالم الإسلامى فى العصر الوسيط، فإن المتمعن فى طبيعة هذه المراسلات يخلص الى أنه بالإمكان الإستعانة بها فى دراسة الوجود الإسلامى فى حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة، وتاريخ ضفته الجنوبية بصفة خاصة. فالعديد من هذه الرسائل تطرقت الى النشاط الذى كان يمارسه اليهود المقيمين بمدن الفسطاط، وتونس، والمهدية، وجربة، وطرابلس. وعلى الرغم من أن الوثائق الخاصة بيهود الجنوب التونسى ومدينة طرابلس قليلة إذا قارناها بالمدن المشار اليها سالفا، فإن عددا غير قليل من المراسلات المتعلقة بطرابلس والجنوب التونسى كانت من بين هذه الوثائق. فهذه الرسائل التى تمحور إهتمامها حول نشاط اليهود التجارى، يلاحظ المتمعن فيها ان المواضيع التى تناولتها هى عبارة عن تساؤلات يطرحها هذا التاجر من هذه المدينة الى ذلك التاجر من تلك المدينة عن أسعار السلع وامكانية ارسالها، وعن أنواع السفن ومواعيد إقلاعها؛ كما تضمنت، بالإضافة الى إشارات عن أهم المؤسسات الإجتماعية، والإقتصادية لعالم المتوسط، الإسلامى منه بالدرجة الأولى، معلومات عن أنشطة مسلمى هذه المدن، مشيرة فى ذات الوقت الى بعض أوجه التعاون بين

1- الشماخى، أبوالعباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، الطبعة الحجرية، قسنطينة، الجزائر، 556.

2- المصدر نفسه، 556-557.

اليهود والمسلمين. إن الإستشهاد بهذه العلاقة، والتى لا تحتل حيزا كبيرا من هذه الوثائق، ولكنها تدعم هى الأخرى المقترح القائل بتكامل المنطقة وتجانسها. ويكفى فى هذا السياق ان أستشهد ببعض ما ورد فى وثيقة تؤكد مدى ترابط منطقة طرابلس والجنوب التونسى. فضمن تطرق هذه الوثيقة لأجر الطبيب فى العصر الوسيط، تفيد بأن أجرة طبيب العيون تتراوح بين ثلاثة دراهم فى الأسبوع الى ألف دينار" وعد بها طبيب يهودى بطرابلس اذا ما وفق فى علاج سلطان قابس. ان هذا الطبيب الذى يبدو انه توصل الى تشخيص الحالة، لم يكن متحمسا لمعالجة السلطان، وعرض على حكام طرابلس خمسين دينارا رشوة فى حالة غضهم الطرف عن دعوات السلطان. وباسلوبهم البدوى الفض ألقوا بوجهاء يهود طرابلس السجن، وأبقوهم رهينة حتى يستجيب لطلبهم. فى نهاية الأمر بدأ هذا الطبيب، الأب لأربعة أبناء، رحلته المحفوفة بالمخاطر، ولكن ولحسن حظه توفى السلطان قبل وصوله" [1].

كما يمكننى إضافة شاهد آخر مستخرج من وثائق الجنيزة، يؤكد هذه المرة ترابط مدينة طرابلس بجزيرة جربة؛فوفقا لهذه الوثيقة المنقولة عن كتاب"اليهود فى دار الإسلام"، فإن يهوديا يدعى إسحاق بن ربّى صدقة، والذى لانعلم يقينا إذا كان من جربة أو من طرابلس، قد وقع فى الأسر أثناء الغزو النورمانى للجزيرة؛وعلى الرغم من أن الشخص الذى دفع الفدية هوأحد يهود مدينة الفسطاط، ولكن إسحاق هذا يفضل البقاء، صحبة عائلته فى مدينة طرابلس، المهددة بدورها بالغزو النورمانى [2].

بعد هذا العرض المستفيض للمعطيات الخاصة بظاهرة تكامل منطقتى طرابلس والجنوب التونسى/جزيرة جربة، يحق لأى إمرء أن يطرح السؤال التالى: ماالجديد فى كل هذا؟ فالجميع، من متخصصين، وحتى من غير المتخصصين على دراية بهذا البعد، ولا يحتاج المرء لكبير جهد لإثبات هذه العلاقة. ومع ذلك تطلب أمر تغطية هذه"الحقيقة"كل هذا الجهد والورق! لماذا؟

1- S. D. Goitein. a Mediterranean society. Economic foundation,V. II,256.
2- Lucette Valensi,A. Udovitch, Juifs en terre d Islam. les communautes de Djerba. Editions des archives contemporaines. 1984, 11.

من الطبيعى أن يكون هناك مبرر لهذا العرض المطول. صحيح أن الجميع يحس بهذه العلاقة، ولكنهم لا يدركون بالضرورة خلفيتها؛هذا من ناحية، من ناحية أخرى إن الدراسات التى تصدت لها قليلة جدا، وإكتفت عند تناولها لطبيعة العلاقة السائدة بين المنطقتين باعتناق فكرة تبعية جزيرة جربة لطرابلس مثلا، أو تبعية هذه الأخيرة لتونس، دون ان تبحث، مثلا، فى خصوصية ظاهرة التبعية هذه التى تطرحها كنموذج للخوض فى هكذا علاقات. فهذه الدراسات لم تنتبه مثلا الى ان ظاهرة التبعية عادة ما تنتج اما عن غزو يستمر لفترة زمنية طويلة تجعل المغلوب على حد تعبير ابن خلدون مولعا باقتداء الغالب[1]، أوأنها تنشأ عن علاقة تكون قاعدتها التجانس، ثم ترتقى هذه العلاقة من مرحلة التعاون الى التبعية مرورا بالتكامل محققة فى بعض الأحيان الوحدة. ولكن المتصفح لهذه الدراسات يفاجأ بان أصحابها، والذين نوهوا بالعلاقةالمبنيةعلى تبعية هذه الجهة لتلك، لم يحددوا طبيعة هذه الظاهرة لا من هذه الزاوية ولا من تلك. فالمتصفح مثلا لدراسة الأستاذ حبيب وداعة الحسناوى"العلاقات السياسية بين طرابلس وجربة من القرن السادس عشر"والتى استعرض من خلالها طبيعة العلاقة السياسية بين هاتين المنطقتين كان ينتظر منه استهلال عمله بتمهيد يوضح من خلاله خلفية هذه العلاقة من ناحية، وما يقصد تحديدا، من ناحية أخرى، بالتبعية التى يسوقها عند حديثه عن علاقة طرابلس بجربة. فالأستاذ حبيب يؤكد، ومن غير أن يوضح ذلك، بأن"المعلومات التى نعرفها على نحو مؤكد عن تاريخ العلاقات بين طرابلس وجربة منذ الفتح العربى وحتى الحملة الأسبانية على شمال أفريقيا فى بداية القرن السادس عشر، تؤكد على تأثر طرابلس وجربة بالأحداث التى تتعرض لها المنطقة، وان هذه الأحداث تترك آثارها فى العلاقات بين طرابلس وجربة، هذه العلاقات التى ترجمت نفسها فى علاقات اقتصادية وتجارية وثقافية وصلات اجتماعية لا زالت

1- ففى فصل ان المغلوب مولع ابدا بالإقتداء بالغالب يقول ابن خلدون ان"السبب فى ذلك ان النفس ابدا تعتقد الكمال فيمن غلب عليها وانقادت اليه اما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أولما تغالط به من ان انقيادها ليس لغلب طبيعى انما هو لكمال الغالب، فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الإقتداء"انظر ابن خلدون، عبد الرحمن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956، الجزء الأول، 123-124.

آثارها باقية حتى اليوم، وفى تبعية سياسية، حيث ان طرابلس وجربة كانتا تخضعان فى بعض الفترات الى سلطة سياسية واحدة وكانت جربة فى بعض هذه الفترات تتبع طرابلس اداريا" [1].

وما يصدق على الأستاذ حبيب، يصدق أيضا على الأستاذ محمد المرزوقى. فضمن توطئة هذا الأخير لكتاب الجربى"مؤنس الأحبة فى أخبار جربة" يشير الى ان المؤرخين لا يعلمون"عما وقع للجزيرة أثر الفتح، فهل دخل أهلها الإسلام؟وهل بقيت فيها حامية من الفاتحين؟ وهل ألحقت تبعيتها بطرابلس أم بإمارة القيروان؟ومن هم نواب الولاة الذين تداولوا عليها الى عهد ائمة نفوسة الذين احتلوها سنة 141"[2].

كما يمكن الإستشهاد فى هذا السياق بمؤلف الدكتورجمعة شيخة" قرقنة وجربة من خلال كتب الرحلات" والذى، وان لم يشر صاحبه صراحة الى ظاهرة التبعية المقترحة فىالعملين المشار اليهما سابقا، فانه ما أنفك يؤكد اصرار أهل الجزيرة على الإستقلال عن السلطة المركزية"بالقيروان أو المهدية فى مرحلة أولى، وتونس فى مرحلة ثانية"[3].

مرة أخرى، إنه وعلى الرغم من ان الدراسات التى بحثت فى علاقة جربة بهذه المنطقة أو تلك قليلة جدا وخالية من أية مقترحات تنظيرية، ولكن أصحابها، وكما سبقت الإشارة، نوهوا بفرضية التبعية. لذلك فإن غياب هذا البعد فى أعمالهم، فوّت عليهم من ناحية، فرصة دراسة العلاقات بين المنطقتين من منطلق تنظيرى قد يحث غيرهم على تناوله من زوايا مختلفة، وجعلهم من ناحية أخرى يتناولون هذه الظاهرة تناولا، إن صح القول، ساذجا وبسيطا. فالتأكيد على تبعية جربة لطرابلس، أو على تبعية هذه الأخيرة لتونس، كما فعل ذلك الأستاذ وداعة، أو التنويه بظاهرة التبعية، ولكن من منطلق مذهبى كما ذهب الى ذلك الأستاذ

1- حبيب وداعة الحسناوى "العلاقات السياسية بين طرابلس وجربة من القرن السادس عشر"فى مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1984، 122.
2- محمد المرزوقى، من تمهيد كتاب"مؤنس الأحبة فى أخبار جربة"، 42.
3- د. شيخة، جمعة، قرقنة وجربة من خلال كتب الرحلات، تونس، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1994، 64.

المرزوقى كان من المفترض ان يمهدا له، على الأقل، من خلال تتبع خلفية العديد من المؤسسات السياسية التى تجعل سكان جربة مثلا يفضلون التعامل مع طرابلس طوال فترة العصر الوسيط. إن تجاهل أصحاب هذه الأعمال لدوافع تقلب العلاقات بين الجنوب التونسى/جزيرة جربة وطرابلس من طرف الى مركز والعكس أضاف بعض العتمة على موضوع يتفق الجميع على صعوبة البحث فيه. لذلك فإن البحث فى موضوع علاقات طرابلس السياسية بجزيرة جربة من هذا المنطلق، لا أقول غير ممكن، ولكنه لن يضيف الشىء الجديد. لأن ما ينطبق، فى حقيقة الأمر، على علاقة جربة السياسية بطرابلس يمكن أن ينسحب أيضا على علاقة أمراء بنى مدرار بالأغالبة!أوعلى علاقة الرستميين بأمويى الأندلس. فالتبعية السياسية لا تشترط الجوار، والأمثلة على هكذا علاقات عديدة ومتنوعة سواء فى الماضى أو فى الحاضر.

تأسيسا علىما تقدم فإننى تعمدت تجنب دراسة علاقة طرابلس بالجنوب التونسى /جزيرة جربة من منطلق سياسى، وقصدت الإطالة فى عرض المعطيات الإجتماعية والإقتصادية، والتى تعكس بعدا حيويا لعلاقة طرابلس بالجنوب التونسى. إن هذه العلاقة تؤكد، ومن هذا المنطلق، ظاهرة، غير ظاهرةالتبعية المقترحة بحياء فى الدراسات المشار اليها آنفا؛إنها تؤكد بعدا أزعم بأنه مغاير؛ فالجديد الذى أدعى إقتراحه فى هذه الدراسة يكمن بالدرجة الأولى فىالتنويه بأهمية الدور الذى لعبته جزيرة جربة فى تأكيد تكامل جزء من ضفة المتوسط الجنوبية، وربما وحدته.

سبق وأن ألمحت فى دراسة"مبحث فىتاريخ الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية" كيف أن طبيعة الساحل الشمالى للمتوسط، وقرب جزره منه لم يؤكدا وحدة الضفة الشمالية فحسب، بل مهدا للقوى الأوروبية عبرالعصور لإستغلال هذه الإمكانيات فى العبور نحو الضفة الجنوبية والسيطرة عليها. إن هذه الأخيرة، والتى كانت تفتقر لإمكانيات طبيعية كالتى يتمتع بها الساحل الشمالى للمتوسط، أظهرتها الأعمال العربية الأولى فى مظهر العاجزعن توحيد سواحلها، وعن مهاجمة الضفة المقابلة إلا فى نطاق ضيق، منوهة بأهمية الأربطة التى أقامها سادة هذه الضفة لصد هجمات القادم من الشمال، أو فى أحسن الأحوال التنويه

بإحتلال بعض الجزرالأقرب للساحل الشمالى، ولفترات ليست بالطويلة على أى حال.

إن هذا الوضع الذى كان عليه الحوض الغربى للمتوسط قد يكون من بين الأسباب التى تجعل الباحثين العرب خاصة يعزفون عن البحث فيه. فالمعلومات الأكثر وفرة هى تلك المعلومات التى تتناول أخبار الغزوات التى يقوم بها سادة الضفة الشمالية على سواحل الحوض الغربى للمتوسط، وردود فعل سادة ضفة المتوسط الجنوبية ضدها. والأدهى من ذلك، ووفقا لما تذكره بعض المصادر العربية الأولى، فإن توجه أهل جربة نحو البحر فى العصر الوسيط ومقارعة سفن الشمال لم ينتج عن موقع الجزيرة ووضعيتها التى أهلتها لأن تلعب هكذا دور، بل كان نتيجة للمشاكل التى كانت تعانى منها سواحل الضفة الجنوبية بعد دخول قبائل بنى هلال أرض المغرب[1].

لذلك، و نتيجة لخصوصية الدراسات المتعلقة بتاريخ الضفة الجنوبية للمتوسط، وببعض جزرها، رأيت ان أبحث فى جزئية أعتقد بأنها قادرة على إظهار تاريخ المنطقة الممتدة من طرابلس الى خليج قابس فى مظهرمغاير للتفاسير الغربية، وللإسقاطات القطرية. فدراسة علاقة طرابلس بجربة لا تهدف فى حقيقة الأمرالى إبرازأهمية هذا القطر والإقلال من شأن الآخر؛أو أنها تسعى، من خلال تأكيد تبعية هذه الجهة الى تلك، الىزعزعة حدود هذا القطر نحو هذا الإتجاه، أو ذاك! فمنطلق هذه الدراسة هوالبحث عن معطيات تبرز طبيعة العلاقة التى ميزت هذه المنطقة طوال العصر الوسيط، والتى أهلتها لأن تأخذ، وفى كثير من فترات تاريخها، شكل الكيان الواحد.

1- يقول ابن خلدون انه "لماغلبت العرب صنهاجة علىالضواحى وصارت لهم، أخذ أهل جربة فى إنشاء الأساطيل وغزو السواحل"، نقلا عن د. أمين الطيبى "العلاقات بين جزيرتى جربة وصقلية فى اواخر القرون الوسطى: 1100-1500"فى مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1984، 142. وعلى الرغم من أن الرواية التى ينقلها التجانى تبدو مغايرة لما يذكره صاحب المقدمة ولكنها تتفق معها فى أن أهل جربة أنشأوا مراكب بعد وفاة المعز"يقطعون بها السبل فى البحر على سائر السواحل" أنظر الرحلة، 125.

بإحتلال بعض الجزرالأقرب للساحل الشمالى، ولفترات ليست بالطويلة على أى حال.

إن هذا الوضع الذى كان عليه الحوض الغربى للمتوسط قد يكون من بين الأسباب التى تجعل الباحثين العرب خاصة يعزفون عن البحث فيه. فالمعلومات الأكثر وفرة هى تلك المعلومات التى تتناول أخبار الغزوات التى يقوم بها سادة الضفة الشمالية على سواحل الحوض الغربى للمتوسط، وردود فعل سادة ضفة المتوسط الجنوبية ضدها. والأدهى من ذلك، ووفقا لما تذكره بعض المصادر العربية الأولى، فإن توجه أهل جربة نحو البحر فى العصر الوسيط ومقارعة سفن الشمال لم ينتج عن موقع الجزيرة ووضعيتها التى أهلتها لأن تلعب هكذا دور، بل كان نتيجة للمشاكل التى كانت تعانى منها سواحل الضفة الجنوبية بعد دخول قبائل بنى هلال أرض المغرب[1].

لذلك، و نتيجة لخصوصية الدراسات المتعلقة بتاريخ الضفة الجنوبية للمتوسط، وببعض جزرها، رأيت ان أبحث فى جزئية أعتقد بأنها قادرة على إظهار تاريخ المنطقة الممتدة من طرابلس الى خليج قابس فى مظهرمغاير للتفاسير الغربية، وللإسقاطات القطرية. فدراسة علاقة طرابلس بجربة لا تهدف فى حقيقة الأمرالى إبرازأهمية هذا القطر والإقلال من شأن الآخر؛أو أنها تسعى، من خلال تأكيد تبعية هذه الجهة الى تلك، الىزعزعة حدود هذا القطر نحو هذا الإتجاه، أو ذاك! فمنطلق هذه الدراسة هوالبحث عن معطيات تبرز طبيعة العلاقة التى ميزت هذه المنطقة طوال العصر الوسيط، والتى أهلتها لأن تأخذ، وفى كثير من فترات تاريخها، شكل الكيان الواحد.

1- يقول ابن خلدون انه "لماغلبت العرب صنهاجة علىالضواحى وصارت لهم، أخذ أهل جربة فى إنشاء الأساطيل وغزو السواحل"، نقلا عن د. أمين الطيبى"العلاقات بين جزيرتى جربة وصقلية فى اواخر القرون الوسطى: 1100-1500"فى مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1984، 142. وعلى الرغم من أن الرواية التى ينقلها التجانى تبدو مغايرة لما يذكره صاحب المقدمة ولكنها تتفق معها فى أن أهل جربة أنشأوا مراكب بعد وفاة المعز"يقطعون بها السبل فى البحر على سائر السواحل" أنظر الرحلة، 125.

بادئ ذى بدء، علينا أن نذكر بأن المعطيات التى سبق ذكرها فى مطلع الدراسة، تعد من أهم ركائز/مقومات فرضية تكامل المنطقة. غير أن الظروف الطبيعية التى جعلت من هذه المنطقة إقليما متجانسا، تأكدت أكثر بفضل مظهر آخر من مظاهرها الطبيعية. فالمتمعن فى خريطة المنطقة الممتدة من مدينة طرابلس الى بداية خليج قابس، يلاحظ زحف اليابسة على البحر بإتجاه الشمال. إن هذه الميزة الطبيعية التىخصت بها هذه المنطقة، والتى تأكدت أهميتها بفضل قرب جزر الضفة الشمالية من سواحل تونس، جعلت مراحل التنقل بين ضفتى الحوض الغربى للمتوسط، على مر العصور هى: صقلية، ومالطا، ومدينة تونس، وسوسة، وجزيرة جربة. ولكن تجدر الإشارة الى أن جزيرة جربة، والتى تقع قبالة البر الذى يفصلها عن مدينة قابس، تكاد بموقعها هذا تقابل، وبشئ من الميلان، مدينة طرابلس!إن هذا المقترح، والذى يحتاج الى شئ من التوضيح، تؤكده بعض المعطيات التى تضمنها دراسة Fulford القيّمة. فدراسة هذا الأخير، وكما سبق وأن بيّنت هذا فى بحث "الفتح الإسلامى لجزيرة مالطا"، إهتمت بالدرجة الأولى بموضوع التجارة البحرية بين منطقة طرابلس "Tripolitania"، ومنطقة برقة "Cyrenaica" فى العصر القديم؛ لذلك فإن النتائج التى توصل إليها صاحب الدراسة، قد لا تفيد كثيرا فى بناء فرضية هذه الدراسة. ولكن ما قد يشفع لى إعتماد بعض نتائج هذه الدراسة، هو أن المعطيات التى يقترحها صاحب الدراسة يدعمها من ناحية بدراسات حديثة تناولت بالعرض والتحليل ظاهرة التيارات المائية، ووجهة الرياح فى حوض المتوسط طوال فصول السنة، وببعض الشواهد الاثرية (الأمفورة خاصة) التىقد تساعد المرء على تلمس إتجاها عاما يفسر علاقة طرابلس، مثلا بجزيرة جربة!

فمن أهم المعطيات التى يستند صاحب الدراسة عليها فى بناء أطروحته، هى تلك المتعلقة بالعوامل التى تحدد مسار السفن فى حوض المتوسط فى القديم. فوفقا لهذه الدراسة، فإن إتجاه الرياح، والتيارات المائية، بالإضافة الى طبيعة موانئ المتوسط التى لا تؤهلها لإستقبال السفن طوال موسم الإبحار، هى التى تجبر السفن فى القديم على الإبحار وفق خطوط لا أقول مستقيمة، ولكنها خطوط شبه هلالية!فالرياح التى تهب طوال ثلثى موسم الإبحار (أبريل-نوفمبر) على ساحل منطقة طرابلس، يقول صاحب الدراسة، تنقسم الى رياح شمالية، وشمالية-غربية؛

أما التيارات المائية فهى ليست قوية، إذ أن موسم الصيف يتميز بنـدرة العواصـف. أما فيما يتعلق برياح "القبلى"والتى قد تتسبب فى إثارة العواصف، فإنها لا تشـكل خطرا حقيقيا على الملاحة إذ أنها لا تدوم، خاصة فى نهاية فصل الربيع، وطـوال فصل الخريف، أكثر من يومين أو ثلاثة أيام. وبالنظرلإمكانيات الإبحار فـى القديـم فإن هذه الظروف (إتجاه الرياح والتيارات المائية) تؤثر لا محالة فى نموذج الإبحار فى القديم[1].

إذا، وبناء على ما تقترحه هذه الدراسة، فإنه من الممكن إعادة النظـر فـى بعـض الأحداث التى شهدتها المنطقة (طرابلس، وجربة) من منطلـق مغـاير. فنحـن نعلـم، مثلا، بأن عمليات الفتح الأولى (حملة عمرو بـن العـاص، وحملـة عبـدالله بـن أبـى السرح) والتى إستهدفت منطقة طرابلس والجنـوب التونسـى، لم تستخدم القـوات الإسلامية فيها قطعا بحرية. ولكن وما أن تؤول الخلافة الى معاوية بـن أبـى سـفيان حتى تأخذ الفتوحات الإسلامية وجهة مغايرة. فهذا الخليفة وكما تجمع على ذلـك المصادر الأولى، كان يغزو فى البر وفى البحر. وحيث إن الدولـة البيزنطيـة كـانت تتميز بقوة بحريـة هائلـة مكنتهـا طوال قـرون عديـدة مـن إحكـام سيطرتها علـى المتوسط حتى غدا يحمل إسمهـا (بحـر الـروم)، فإنـه كـان علـى معاويـة، وهوالـذى ماانفك يحث الخليفة عثمان ابن عفان على ضرورة منازلة الروم بحرا، أن يوجه كـل أنظاره الى هذا المجال الحيوى.

لذلك فإنه ليس من قبيـل الصدفـة أن يتقـرر فـى هـذه المرحلـة إسـتخدام المجـال البحرى لإتمام عمليات الفتـح فـى إفريقيـة، وللإسـتعداد لمهاجمـة الـروم فـى بعـض جزرالحوض الغربى للمتوسط التى أصبحت، نتيجة هزيمة البيزنطيين بشرقى الحوض فى موقعة ذات السوارى وانتقال جيوشهم المهزومـة فـى هـذه الموقعـة الى صقليـة، تشكل تهديدا مباشرا للتواجـد الإسـلامى ببـلاد المغـرب. لذلـك، و مـا أن يدخـل معاوية بن حديج أرض أفريقية حتى يقرراستخدام قواته البحرية سواء فى إستكمال السيادة الإسلامية على منطقتـى طرابلـس والجنـوب التونسـى، أوفـى الشـروع فـى مهاجمة الروم فى الجزر الفاصلة. فهذا الوالى الذى إختلفـت المصـادر حـول تـاريخ دخولـه إفريقيـة، يرسـل برويفـع بـن ثـابت الأنصـارى، أمـيرطرابلس، الى جربـة،

1- M. G. Fulford "To east and West... "169-171.

فيفتتحها سنة ست وأربعين[1]؛ وما أن تحكم القيادة الإسلامية قبضتها على هذه الجزيرة، وتؤكد تبعيتها لمدينة طرابلس، حتى يقرر هذا الوالى مهاجمة صقلية، فيرسل عبدالله بن قيس الفزارى. وعلى الرغم من أن النويرى الذى ننقل عنه هذه الرواية لا يحدد المكان الذى أبحرت منه السفن الإسلامية، إذ يكتفى بالإشارة الى أن معاوية بن حديج كان"بعثه من إفريقية"[2]، فإن ظروف تلك الحملة تجعل خروجها من شمال" بيزاسينا" مثلا أمرا مستحيلا؛فحملة معاوية بن حديج على إفريقية إقتصرت على فتح مدينة جلولاء التى لا تبعد كثيرا عن المكان الذى ستؤسس عليه مدينة القيروان لاحقا؛من ناحية أخرى إن مهاجمة جيش إبن حديج المنطقة القريبة للساحل (مدينة سوسة) لم ينتج عنها تصادم بحرى بين القوتين. فالرواية تذكر بأن إبن حديج أرسل الى بطريق الروم بخفور بخيل"فقاتلوه فأنهزم وأقلع فى البحر"[3]. ليس هذا فحسب، بل إن المتصفح للمصادر التى تصدت لموضوع الفتوحات الإسلامية فى إفريقية، يرى كيف أن السفن البيزنطيةببلاد المغرب لم تترك سواحله غداة هزيمتهم بجلولاء، بل ظلت مرابطة ببعض المدن الساحلية و لم تغادرها الا بعد هزيمتها على يد حسان بن النعمان. فحسان هذا والذى قاتل "الروم بفحص تونس (سأله) الروم الا يدخل عليهم وأن يضع الخراج عليهم ويقوموا له بما يحمله وأصحابه، فأجابهم الى ذلك. وكانت لهم سفن معدة من ناحية الباب الذى يقال له باب النساء، فاحتملوا فيها أهلهم وأموالهم وهربوا ليلا وأسلموا المدينة"[4].

1- التجانى، الرحلة، 124.

2- النويرى، أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ المغرب الإسلامى فى العصر الوسيط، 457.

3- المصدر نفسه، 185.

4- البكرى، كتاب المسالك والممالك، الجزء الثانى، 693؛ هذا ويشير البكرى فى مكان آخر الى معلومة تزكى بدورها استحالة خروج السفن الإسلامية من شمال إفريقية؛فضمن حديثه عن جزيرة شريك الواقعة بين مدينة سوسة ومدينة تونس، يقول بأن الروم اجتمع فى هذه الأخيرة"وتبادروا منها الى مدينة اقليبية وما حولها، ثم ركبوا منها الى جزيرة قوصرة، وهى بين صقلية وإفريقية.... فيقال انهم أقاموا بها الى خلافة عبد الملك بن مروان، فأغزى.... عبد الملك بن قطن البحر، ففتح ما كان هناك من الجزائر والقصور، وخربها وقفل ظافرا"الجزء الثانى، 704.

إن الأمر الآخر، والذى قد يرجح إمكانية خروج هذه الحملة من طرابلس، أو من جزيرة جربة، أو، وبحكم التيارات المائية والهوائية المتحكمة فى وجهة السفن، من المنطقتين، هوأن الجيوش الإسلامية لم تصحب معها سفنا فى حملاتها الأولى، وحتى السفن التى أرسلت بها مصر عقب حملة إبن أبى السرح، فقد إستخدمت فى نقل الغنائم الى بلاد الشام. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن تمرس طرابلس وجربة بأمور البحر، ووقوعهما تحت سلطان المسلمين تجعل إنطلاق هذه الغزوة من هذه المنطقة أو تلك أمرا ممكنا. وإذا أضفنا الى هذه المؤشرات، شاهدا تناقلته العديد من مصادرنا مفاده أنه كان بحيازة المسلمين سفنا كانوا قد غنموها فى حملة إبن أبى السرح، نكون بذلك قد أضفنا الى هذه الإحتمالية أسهما أكثر من مقنعة. فالمصادرتذكر بأن وصول طلائع إبن أبى السرح مدينة طرابلس، قدتزامن ووصول مراكب بيزنطية، أضطر المسلمين لمهاجمتها، إذ أن وجهة هذه الحملة كانت إفريقية، وأخذ ما عليها[1].

إن صمت المصادر فيما بعد عن الحملات البحرية التى تخرج من طرابلس أوجربة، لا يمكن إرجاعه الى غياب هكذا نشاط، بل يمكن إرجاعه الى إنتقال مركز السلطة الىالشمال الذى شهد، ومنذ دخول حسان بن النعمان، نشاطا متزايدا فى مجال البحر تمثل فى إنشاء السفن، وفى تحسين بعض موانئ المنطقة. إن تزايد إهتمام الولاة، الذين توالوا على بلاد المغرب، بأمر البحرفى المرحلة التى سبقت قيام الإمارة الأغلبية، وإستمرارهم فى إرسال الحملات البحرية على جزيرة صقلية، مثلا، جعلت مصادرنا تغفل عن ذكر نشاط بقية المنطقة. فنشاط منطقة الشمال كان لا محالة أكثر أهمية، غيرأن ظروف الإبحار التى سبق التنويه بها تدفعنا للإعتقاد بأن نشاط منطقتى طرابلس وجربة البحرى لم يتوقف حتى بعد أن أصبحت منطقة الشمال هى منطقة الجذب. فليس من قبيل الصدفة أن يحتل رباط طرابلس فى هذه المرحلة نفس الأهمية التى يحتلها رباط المنستير؛كما ان اهتمام ولاة الدولة العباسية الدائم بترميم أسوار مدينة طرابلس يعكس بدوره أهمية الدور الذى تضطلع به هذه المدينة فى مجال النشاط البحرى فى هذه المرحلة. أن تأكيد المصادر، الأولى والمتأخرة على السواء، على أن تجار طرابلس مثلا يسافرون فى

1- المصدر نفسه، 178 ؛ أنظر أيضا المالكى، أبوبكر عبدالله، رياض النفوس، الجزء الأول، 10.

البحر كما يسافرون فى البر، وعلى أن لمدينتهم ميناء"مأمون جيد، ولها دار صناعة للأساطيل"1هى مؤشرات يستشف منها المرء أهمية نشاط هذه المدينة البحرى، وإستمراره وحتى فترة متأخرة من العصر الوسيط. وحيث إن جزيرة جربة تقع، وكما سبقت الإشارة فى مجال حركة السفن الطرابلسية المتجهة شمالا، وغربا فقد كان لزاما على السفن الطرابلسية أن تتوقف بجزيرة جربة، وبالتالى فإنه يحق للمرء أن يزعم بأن صمت المصادر عن نشاط الجزيرة التجارى مرده ان نشاط طرابلس والجزيرة، والى حد ما، واحد.

إن سيادة البحرية الإسلامية فى الحوض الغربى للمتوسط والتى تأكدت بقيام دولتى بنى أمية بالأندلس (138هـ)، والأغالبة بالقيروان (184هـ)، توّجت فى مرحلة أولى بفتح جزيرة صقلية، وفى مرحلة لاحقة بفتح بقية جزر هذا الحوض. إن وضعية البحرية الإسلامية المتميزة هذه عملت بدورها على تعتيم نشاط منطقتى طرابلس وجربة البحرى طوال هذه الفترة.

ولكن وما أن إنتقل الفاطميون، فى منتصف القرن العاشرالميلادى/الرابع للإسلام، الى مصرحتى أخذ شكل علاقات القوى المطلة على الحوض الغربى للمتوسط شكلا مغايرا. فالشكل الذى ساد من القرن الحادى عشر، وحتى قدوم العثمانيين فى القرن السادس عشر، تميز بغلبة قوى الشمال المتمثلة فى طرد المسلمين من جزر صقلية، وسردينيا، ومالطا، وفى مهاجمتهم سواحل ضفة المتوسط الجنوبية. وفى ظل هذا التغير تعود المصادر للتذكير تارة بنشاط جربة البحرى، وبالتنويه بدورها المتميز فى الدفاع على المنطقة، تارة أخرى. وحيث إن هذه الدراسة تهدف، فى المقام الأول، الى إبراز دور جربة فى تأكيد تكامل المنطقة الممتدة من مدينة طرابلس الى خليج قابس، فإننى سأكتفى بالشواهد التى تبرز دور جربة، فى الفترة السابقة لدخول العثمانيين، فى دفع الغزاة عن سواحلها، وفى تأكيد تكامل المنطقة، وربما وحدتها التى غفلت عنها المصادر العربية، وتجاهلتها الأعمال العربية الحديثة المتأثرة بالتفاسير القطرية.

1- البكرى، كتاب المسالك والممالك، الجزء الثانى، 760.

لقد سبق وأن نوهت فى دراسة"الفتحٌ الإ سلامى لجزيرة مالطا"بظاهرة أراها قادرة على تفسير العديد من الأحداث التى شهدها حوض المتوسط فىمراحل تاريخية مختلفة. فالظاهرة المنوه بها تتلخص فى أن ضفتى المتوسط كانتا، وبإستمرار، منجذبتين الى بعضهما البعض. لذلك فإن المرء يلاحظ بأنه، وما ان تنهض علىهذه الضفة أوتلك قوة متماسكة داخلياومسيطرة على سواحل ضفتها، حتى ترنو ببصرها نحو الضفة المقابلة. إن المتتبع لأهم مراحل تاريخ هذا الحوض يخلص الى أن كفة الضفة الشمالية كانت الارجح. إن هذه الوضعية، وكما سبق وأن بينت فى دراسة"الحوض الشرقى للمتوسط عشية الحروب الصليبية" تعود الى أسباب موضوعية لا صلة لها بالنظريات العرقية، والتى تريد أن تؤكد بأن نجاح الضفة الشمالية فى السيطرة على الضفة الجنوبية ولفترات طويلة، سببه تفوق رجل الشمال الفطرى، وتدنى رجل الجنوب الخلقى؛إن تفوق الضفة الشمالية يكمن بالدرجةالأولى فى كثرة خلجانها التى تيسر عمليات التنقل بين منطقة وأخرى، وفى إنتشار العديد من الجزر أمام سواحلها. إن هذه الخاصية الأخيرة كونت على مر العصور موانع طبيعية، حتى وإن لم تنجح بإستمرار فى منع القادم من الجنوب من إحتلالها، ولكنها، وبمقاومتها له، كانت توهن عزمه وتجعله يقلع عن فكرة الإستمرار نحو الشمال.

ولكن، وعلى الرغم من أن وضعية هذا الحوض الطبيعية والبشرية رجحت كفة الضفة الشمالية، فإنه من الضرورى التنبيه الى أن ضفة المتوسط الجنوبية لم تكن، وعلى الدوام، منتظرة قدوم سيد الشمال؛فبفضل قيامها بضم العديد من جزرالشمال، وبمهاجمة بعض سواحله، تولدت علاقة غلبت عليها سمة التكافؤ. صحيح ان هذه العلاقة الأخيرة لم تعمر كثيرا، ولأسباب يضيق المجال لذكرها، ولكن بروزها فى علاقات الضفتين للمرحلة السابقة لدخول العثمانيين هذا الحوض فى القرن السادس عشر، لها دلالتها؛فإذا كانت طبيعة الضفة الشمالية قد ساعدت قواه على توحيد الجهود، والتى استغلت أحسن استغلال فى مهاجمة ضفة المتوسط الجنوبية، فإن هذه الأخيرة، وعلى الرغم من تواضع امكانياتها، فإنها، ومدفوعة بظاهرة التجاذب هى الأخرى، لم تقف مكتوفة الأيدى، بل عملت، خاصة الإقليم الممتد من طرابلس الى جربة، على دفع الغزاة، وعلى تأكيد إستقلال هذا الإقليم

المبنى على أسس التجانس، والتعاون، والتكامل. فهذه المنطقة، والتى انطلقت منها السفن لغزو صقلية، وقد تكون قد شاركت فى فتح مالطا أيضا، سوف تتعرض انطلاقا من القرن الثانى عشر الى هجومات متكررة تقودها قوات نورمانية، فاسبانية.

مرة أخرى إن ما ميز علاقات قوى الحوض الغربى للمتوسط فى القرن الحادى عشر، هو تنامى قوة ضفة الشمال البحرية، وتراجع قوة الضفة الجنوبية. فالنورمان، القادم الجديد الى هذا الحوض، قرروا، وقبل مهاجمة الضفة المقابلة إنشاء أسطول بحرى يساعدهم على إسترجاع المراحل /المحطات (صقلية-مالطا-طرابلس-جربة) التى تفصل الشمال عن الجنوب. ففى سنة453ه باشروا عملية إستعادة جزيرة صقلية، والتى تمكنوا من إستعادتها كاملة من المسلمين سنة479ه؛وفى سنة 494ه إحتلوا جزيرة مالطا. أما جزيرة جربة فقد تم إحتلالها سنة 530ه. وبعد قرابة ثمان سنوات إحتل النورمان مدينة طرابلس[1]. غير أن سكان المدينة، يسترسل روسى تلقوا"نجدة عربية من الريف، قوى بها سكان المدينة فخرجوا الى اسطول الغزاة وحملوا عليهم حملة قوية منكرة، فانهزموا هزيمة فاحشة، وأرغموهم على الفرار، واللحاق بسفنهم"2. إن هزيمة النورمان هذه لم تدفعهم الى الإقلاع عن فكرة احتلال مدن وسواحل بلاد المغرب، إذ ظلوا يتحينون الفرص لينقضوا من جديد على السواحل المقابلة لجزيرتهم. لذلك، ونتيجة عجز جزيرة جربة، المرحلة/المحطة المتقدمة نحو الشمال ونقطة الدفاع الأولى لشواطئ منطقتى طرابلس والجنوب التونسى، فضلا عن المجاعة التى تعرضت لها مدينة طرابلس سنة 539هـ، تمكن النورمان فى هذه السنة من إحتلال طرابلس، للمرة الثانية وفى أقل من سنتين. إن سيطرة النورمان على هذا الإقليم، الممتد من طرابلس الى جربة، جرأهم على إحتلال بقية مدن الساحل التونسى، فاحتلوا تباعا صفاقس، وسوسة، والمهدية، وبذلك أصبح الإقليم الممتد من طرابلس الى المهدية خاضعا لهم[3].

1- روسى، إتورى. ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة 1911، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسى، بيروت، دار الثقافة، 1974، 87.

2- المرجع نفسه، 87.

3- روسى، ليبيا منذ الفتح العربى88.

مع ذلك، إن سيطرة النورمان على هذا الإقليم، والتى تؤكد لا محالة صحوة ضفة المتوسط الشمالية، لا تعنى بالضرورة استسلام سكان هذا الإقليم، أو على الأقل بعضهم، لهذا الوضع، والرضوخ له. هذا وإن إختلفت أساليب المقاومة، أو المراوغة ان صح القول، ولكن الأمر الأكيد هو انه، وعلى الرغم من تواضع امكانيات جزيرة جربة، فإنها تميزت عن غيرها من المدن التى احتلت، بشدة المقاومة التى كلفتها النفس والنفيس. فالوجود النورمانى بمدينة طرابلس، والذى استمر قرابة الإثنتى عشر سنة، لم تشهد خلاله المنطقة مقاومة تذكر؛ولكن وما ان علم سكان المدينة بزحف الموحدين سنة 553هـ، حتى قاموا بثورة ضد النورمانيين الذين تم طردهم واجلائهم عن المدينة "والإعتراف بسيادة الموحدين" [1]. وما يصدق على مدينة طرابلس ينسحب على بقية المدن التى احتلها النورمان. غير أن جربة، وكما سبقت الإشارة، لا تكتفى مثلا بشدة مقاومة المحتل النورمانى فى غزوته الأولى للجزيرة سنة 529هـ، ولكنها تعود الى اعلان الثورة، ومقاومة المحتل سنة 548هـ. إلا أن تواضع امكانياتها، فضلا عن تجزئة ضفة المتوسط الجنوبية ساعدتا النورمان على التنكيل بسكانها، بل والقيام بتهجيرهم. ففى هذه السنة، يقول التجانى"ثار أهلها على النصارى، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، فغزاهم النصارى من عامهم وتغلبوا على الجزيرة ثانية، فنقلوا أكثر أهلها سبايا الى بلادهم و لم يبقوا بها الا من لا بال له"[2]. أمام هذه التغيرات لم يكن أمام هذه الجزيرة الا ان تمتثل بدورها لهذا المصير، وان تنتظر كغيرها قدوم الموحدين الذين وضعوا حدا للنفوذ النورمانى فوق الأراضى الإفريقية.

ولكن، وعلى الرغم من أن الضفة الجنوبية استردت، بفضل جهود الموحدين، بعض هيبتها، غير ان الفتن الداخلية، من ناحية، والصراع من أجل السلطة من ناحية أخرى، واللذان أكدا تجزئة المنطقة، سهلت مجتمعة لقوى الشمال مهمة احتلال طرابلس و مهاجمةجربة من جديد. وهذه الدراسة لا تريد أن تتوقف، فى حقيقة الأمر كثيرا، عند ظاهرة دراسة تاريخ منطقتىطرابلس وجربة من منطلق تاريخ النفوذ الأجنبى فى المنطقة، فهكذا وجهة تكاد لا تخلو منها دراسة من

1- المرجع نفسه، 89.

2- التجانى، رحلة التجانى، 126.

الدراسات التلى تناولت تاريخ العرب فى عصريه الوسيط والحديث. فغاية هذه الدراسة هى إبراز علاقة طرابلس المتميزة بالجنوب التونسى فى المرحلة قيد الدراسة. لذلك فما يهمنى من كل هذه الشواهد، والإستطرادات هولفت النظر لظاهرة إقتران إسم طرابلس بجربة أثناء كل الهجمات التى تعرض لها هذا الإقليم، ومحاولة تفسيرها. فالمتتبع، مثلا، لكل العمليات العسكرية التى إستهدفت هذا الإقليم إما أن تستهل بمدينة طرابلس وتنتهى بجزيرة جربة، أو العكس. وما يدفع المرء الى التسليم بصحة هذه الفرضية أن هذه الوضعية لم تتغير طوال فترة الحكم الحفصى.

وبدخول الإسبان الى الحوض الغربى للمتوسط، وعلى الرغم من التطور الملحوظ فى صناعة السفن التى أحدثت لا محالة تغيرا كبيرا على نموذج التنقل/الإبحار بين مختلف سواحل هذا الحوض، فإن مراحل/محطات العبور التقليدية لم يتم التخلى عنها. فالحملة الأسبانية على هذا الإقليم لم تختلف فى إستراتيجيتها عن إستراتيجية الغزاة الأوائل، إذ ان الإسبان وبعد أن احتلوا مدينة طرابلس، اتجهوا لإحتلال جربة؛ولا حاجة للتذكير بأن جزيرتى صقلية ومالطا كانتا فى تلك الفترة تحت النفوذ الإسبانى!فالهجوم إذا على هذا الإقليم، وبصرف النظر عن التبريرات التى قد يقترحها البعض، كان إستجابة لظاهرة التجاذب التى تفرض على أية قوة تنتصب على هذه الضفة أو تلك، وتجد فى نفسها القدرة على تحقيق هذا الامر، العبور عبر هذه المراحل للضفة المقابلة. والمتمعن فى نص الجربى، والذى لا يشير بطبيعة الحال الى هذه العلاقة"الإقترانية"ان صح القول بين جزيرة جربة، ومدينة طرابلس، ولكنه يكاد ينطق بها. يقول الجربى حول الحملة الإسبانية على هذا الإقليم أنه "فى سنة ست عشرة وتسعمائة ليلة الثلاثاء لتسع وعشرين ليلة خلت من شهر ربيع الأول، هجم الإفرنج على الجزيرة علىالساحل القبلى، بعد ما ملكوا طرابلس"1وفى هذه الحملة أيضا يلقى الغزاة المصير نفسه؛فأهل جربة يقررون، وبعد أن فشلت محادثات رئيس الإفرنج مع شيخ الجزيرة آنذاك أبو زكرياء يحي السمومنى، قتال الإفرنج. وفى"يوم الجمعة إستعد الكفار للنزول فصلى المسلمون صلاة الجمعة وخطب خطيبهم بما أعد الله من النعيم المقيم للمجاهدين فى سبيل

1- الجربى، مؤنس الأحبة، 105-106.

الله، ونزل عدو الله بعساكره رجالا وركبانا بطبولهم وآلة حربهم من مدافع ومحرقات وغيرها، فرتب المسلمون صفوفهم ميمنة وميسرة وقلبا، وعند نزولهم للبر هجمموا على المسلمين، فولى المسلمون أمامهم فاتبعتهم الكفرة وقد أكمن لهم المسلمون جماعة من المجاهدين... فقطعوا بينهم وبين البحر ورجع عليهم المسلمون، وحملوا عليهم من كل جهة وجانب حملة رجل واحد، وأعلنوا كلمة التوحيد ووضعوا فيهم السيف، فلم يبق منهم إلا القليل فأسروهم ولم يرجع منهم أحد الى سفنهم"[1].

بعد هذا العرض التاريخى الموجز للنجاحات التى حققتها هذه الجزيرة وحتى مرحلة متأخرة من العصر الوسيط، يحق لأي إمرء ان يتساءل عن سر نجاح هذه الجزيرة فى طرد الغزاة. فالمتمعن فى امكانيات جربة، وكما سبقت الإشارة فى بداية هذه الدراسة، يتأكد، وبما لا يدع مجالا للشك، من تواضع امكانياتها مقارنة بمنطقة طرابلس، أوبمدينة قابس. ومع ذلك، فإن النورمان، مثلا، أو الإسبان فى فترة لاحقة، يجدون مشقة كبيرة فى إحتلال هذه الجزيرة! لماذا؟ إن المصادر، بل والمراجع الحديثة أيضا لم تستوقفها هذه الظاهرة، مكتفية بالتنويه ببسالة أهل جربة وبشجاعتهم؛ولسنا فى حاجة للتأكيد على أن هكذا خاصيةلا تنفرد بها جربة عن غيرها من المناطق. إذا كيف نفسر فشل بقية المناطق، ونجاح جربة، رغم تواضع امكانياتها، فى القيام بهذا الدور؟

إن المتتبع للتفاصيل والمقترحات التى تضمنتها هذه الدراسة يدرك الآن بأن سبب نجاح هذه الجزيرة يكمن فى عوامل عديدة، نذكر بعضها فى عجالة، واختصار. فهذه الجزيرة، وكما أكدت هذا سابقا، تقع قبالة مدينة قابس، وشمال-غرب منطقة طرابلس . وهذه الوضعية، بالإضافة للعاملين القومى/الدينى، والإجتماعى/الإقتصادى المنوه بهما، جعلتها تستمد القوة والعون من هاتين المنطقتين. ففى حين تشير المصادرمثلا الى ان قابس كانت "حاضرة هذا الإقليم وقطبه وروحه وقلبه"[2] فإنها تفيد بأن مدينة طرابلس كانت أكبر من مدينة قابس[3].

1- المرجع نفسه، 107.
2- مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار، 113.
3- المقدسى، أبوعبدالله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، 186.

لذلك، حتى وإن لم تذكر المصادرصراحة تفاصيل هذا البعد، فإن المتمعن فى عمليات التنقل المقترحة آنفا، يلاحظ كيف ان جربة مثلا كانت تستقبل، وعلى الدوام سكان منطقة طرابلس[1]، كما كانت هذه الأخيرة، وبفضل امكانياتها الطبيعية والتعليمية، فضلا عن علاقاتها التجارية مع مناطق جنوب الصحراء، تحتضن العديد من سكان جربة، ومن سكان الجنوب التونسى. لذلك فإن مصدر زاد هذه الجزيرة البشرى، والعتادى، حتى وان لم تذكره مصادرنا صراحة، كان يتأتى من هاتين المنطقتين اللتان تمثلان، فى ذات الوقت، عمقا استراتيجيا لهذه الجزيرة الحاجزة. فى المقابل، إن سكان منطقة طرابلس، وخليج قابس الذين كانوا على دراية بأهمية هذه الجزيرة فى حالتى الدفاع والهجوم، كان عليهم، وحتى يحموا سواحلهم من هجمات القادم من الشمال أن يساندوا هذه الجزيرة.

الأمر الآخر، هو انه، وعلىالرغم من أن موقع جربة يجعل منها مرحلة ضرورية للقادم من الشمال، أو العكس، فإن وجهة الرياح، والتيارات المائية لا تجعل عمليات التوقف عند هذه الجزيرة أمرا أكيدا. فوفقا لما تذكره وثائق الجنيزة، فإنه من العادى جدا أن ترسو سفنا بطرابلس عوضا عن صقلية، أو بالمهدية عوضا عن طرابلس، وهكذا[2]. وبالإضافة الى هذه الظاهرة، فإن جزيرة جربة القريبة من البر (البر التونسى بطبيعة الحال) تمتعت بخاصية أخرى ضاعفت من مناعتها. فبالإضافة الى ان المياه المحيطة بالجزيرة، وكما أشارت الى ذلك المصادر كانت ضحلة، فإن عمليتى المد والجزر كانتا من بين أهم عوامل إفشال هجومات الغزاة على سواحل هذه الجزيرة. وسأكتفى فى هذا السياق بالإستشهاد بالحملة الإسبانية علىجزيرة جربة سنة 1510، والتى توضح، وبشكل قاطع أهمية هذا العامل فى طرد الغزاة من الجزيرة. ففى هذه السنة يقول ليون الإفريقى أنزل دوق الألب"جنوده على بضعة أميال من الشاطئ.... وكان نزولهم فى وقت المد، فلما أرادوا العودة الى سفنهم صادفوا وقت الجزر لدى رجوعهم، وكانت السفن قد تراجعت مع الجزر حتى لا

1- سأكتفى بالإستشهاد بما يذكره الأستاذ المرزوقى فى توطئته لكتاب المؤنس حول انتقال أسر طرابلسية الى جزيرة جربة؛فضمن توطئته للكتاب يقول الأستاذ المرزوقى بأن عائلة صاحب الكتاب هى"من العائلات التى نزحت من طرابلس الى جربة منذ زمن قديم، شأن كثير من سكان الجزيرة"26.

2- S. D. Goitein,a Mediterranean society,V. I,323.

ترسو على اليابسة وقد انحسر الماء عن مسافة بسبب تراجع البحر. فأضيفت هذه الأميال الى الأخرى التى قطعها الإسبانيون، وجدوا أنفسهم منهوكين مهددين بخطر جعلهم يقصدون سفنهم بغير نظام وقد ركب الفرسان المسلمون ظهورهم، فقتل معظمهم أو أسر، ولم ينج منهم ويلتحق بصقلية مع الأسطول إلا القليل"[1].

هذه بإختصار أهم العوامل التىساعدت الجزيرة على مقاومة الغزاة، وعلى طردهم من على أراضيها، والأهم من ذلك، مضايقتهم أمام شواطئ منطقة طرابلس-قابس، والتى أصبحت بفضل هذه العمليات تشكل إقليما واحدا. وعلى الرغم من ان المصادر لا تشير الى قيام سفن الجزيرة بحراسة سواحل طرابلس مثلا، إلا ان إقتران عمليات الغزو لكل من طرابلس وجربة، واستمرار تنقل سكان هذا الإقليم عن طريق البحر، تجعل المرء يكاد يجزم بأن للطرابلسيين سفنا تعمل فى هذه المنطقة، رفقة سفن الجنوب التونسى لهذه الغاية. و ما يفسرهذا الأمر أهمية مدينة طرابلس بالنسبة للمنطقة ككل من ناحية، وإحتضانها لدار صناعة التى لم يشهد الجنوب التونسى-جزيرة جربة قيامها إلا فى القرن السادس للإسلام، من ناحية أخرى. فمن الطبيعى إذا أن تتواجد سفنا طرابلسية فى هذه المنطقة قبل أن ينشأ سكان جربة"مراكب يقطعون بها السبيل فى البحر على سائر السواحل"[2]؛ ومن الطبيعى أيضا أن تبقى هذه السفن فى هذه المنطقة، خاصة وان العلاقة بين جربة وطرابلس لم تعكر صفوها، طوال فترة العصور الوسطى، أية شائبة. لذلك، فإننى أميل الى الإعتقاد بأن إسراع القوة الغازية، وبعد سيطرتها على مدينة طرابلس، فى التوجه نحو الجزيرة، كان يهدف بالدرجة الأولى الى إستئصال الاسطول الطرابلسى، وعزل منطقة طرابلس عن الجزيرة التى تعتبر"محطة ترحيل" للسفن الطرابلسية المتجهة الى صقلية، والمغرب. إن تكرار هذه العمليات، عمليات الغزو والمقاومة، ولقرون عدة، أكدت تكامل هذه المنطقة الذى ماكان له أن يستمر كل هذه الفترة لولا تجانس المنطقة الذى ساعد على ترسيخه، ضمن عوامل عديدة، موقع جزيرة جربة التى لم تكتف بدور الجزيرة الحاجزة فحسب، بل لعبت

1- الفاسى، الحسن بن محمد الوزان (المعروف بليون الإفريقى) وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجى، ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1983، الجزء الثانى، 95.

2- التجانى، الرحلة، 125.

أيضادور "البلد البوتقة" حيث إنصهرت فى هذه الجزيرة عائلات طرابلسية، وتونسية، أصبحت مهمتها رعاية مصالح هذا الإقليم والذود على حدوده. إنه وبفضل هذه الوضعية، التىإكتفت الأعمال التقليدية بتفسيرها من منطلق تبعية هذه المنطقة الى تلك، سوف لن يجد درغوث باشا المغامر/ الوالى"المسلم"، وبصرف النظر عن تقييمنا للوجود العثمانى فى المنطقة، أية مشقة فى السيطرة على هذا الإقليم، وإستخدامه فى محاربة الإسبان، وفى ضم بقية سواحل بلاد المغرب.

ثبت المصادر والمراجع

أولا:- المصادر العربية:

1- ابن الأثير، عزالدين على، الكامل فى التاريخ، بيروت، دار صادر، 1966.

2- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، 1980.

3- ابن جعفر، قدامة، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتاب، بيروت، دار احياء التراث العربى، 1988.

4- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبى، صورة الأرض، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، 1979.

5- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956.

6- ابن خياط، خليفة، تاريخ ابن خياط، تحقيق د/أكرم ضياء العمرى، بيوت، مؤسسة الرسالة، 1972.

7- ابن عبد الحكم، أبوالقاسم عبد الرحمن، فتوح مصر والمغرب، الجزائر، 1961.

ـــــــــــــــــــ، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، 1995.

8- ابن عذارى، المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ج. س. كولان، وليفى بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، د. ت.

9- ابن قتيبة، أبو محمد مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق، طه محمد الزينى، القاهرة، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع، د. ت.

10- البكرى، أبو عبد الله، المغرب فى ذكر افريقية والمغرب، بغداد، 1964.

ـــــــــــــــــــ، المسالك والممالك، تحقيق، أدرين فان ليوفن، وأندرى فيرى، تونس-طرابلس، الدار العربية االكتاب، 1992.

11- البلاذرى، أبو الحسن، فتوح البلدان، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1983.

12- التجانى، أبو محمد عبد الله، رحلة التجانى، قدم لها حسن حسنى عبد الوهاب، تونس-طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1981.

13- الجربى، محمد أبو راس، مؤنس الأحبة فى أخبار جربة، مهد له محمد المرزوقى، تونس، المطبعة الرسمية، 1960.

14- الحموى، شهاب الدين ياقوت، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1979.

15- الدرجينى، أبو العباس أحمد بن سعيد، طبقات المشايخ بالمغرب، حققه وقام بطبعه ابراهيم طلاى، الجزائر، 1974.

16- الشماخى، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، تحقيق ودراسة محمد حسن، منشورات كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، 1995.

17- الطبرى، أبو جعفر محمد، تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار الفكر، 1979.

18- الفاسى، الحسن بن محمد الوزان(المعروف بليون الإفريقى) وصف افريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجى، ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1983.

19- المالكى، أبوبكر عبد الله، رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1951.

20- المقدسى، أبو عبد الله بن أحمد، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، بيروت، دار احياء التراث العربى، 1987.

21- المقريزى، تقى الدين أحمد بن على، إغاثة الأمة بكشف الغمة، المحقق عبد النافع طليمات، الناشر، دار ابن الوليد، د. ت.

22- ________، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1967.

________، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، الطبعة الثانية، 1996.

23- مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار، نشر وتعليق عبد الحميد سعد زغلول، العراق، 1986.

24- النويرى، أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ المغرب الإسلامى فىالعصر الوسيط(من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب) تحقيق مصطفى أبوضيف أحمد، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1985.

25- اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب، تاريخ اليعقوبى، بيروت، بيروت للطباعة والنشر، 1980.

ثانيا:- المراجع العربية.

1- ابراهيم أحمد العدوى"اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى" فى المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الثانى، أكتوبر، 1950.

2- ادريس، هادى روجيه، الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادى الساحلى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1992.

3- أمارى، ميخائيل، المكتبة العربية الصقلية، بالرمو، 1988.

4- أمين الطيبى"العلاقات بين جزيرتى جربة وصقلية فى أواخر القرون الوسطى. 1100-1500" فى مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول ، 1984.

5- البارونى، عمر محمد، الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى طرابلس. طرابلس، مطبعة ماجى، 1955.

6- بازامة، مصطفى، تاريخ مالطة فى العهد الإسلامى، بيروت، مطبعة دار الكتب، 1971.

7- برنشفيك، روبار، تاريخ افريقية فى العهد الحفصى من القرن 13 الى القرن 15، نقله الى العربية حمادى الساحلى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1988.

8- بلويه، بريان، قصة مالطة، نقله الى العربية مصطفى محمد جودة، طرابلس، مكتبة الفرجانى، 1969.

9- حبيب وداعة الحسناوى"العلاقات السياسية بين طرابلس وجربة من القرن السادس عشر"فى مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، 1984.

10- الدورى، عبد العزيز، العصر العباسى الأول. دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى، بيروت، دار الطليعة، 1988.

11- روسى، أتورى، ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة 1911، تعريب خليفة محمد التليسى، بيروت، دار الثقافة، 1974.

12- الـزاوى، الطـاهر، ولاة طرابلـس مـن بدايـة الفتـح الى نهايـة العهـد العثمـانى، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، 1970.

13- زكار، سهيل، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، دار الفكر، 1975.

14- سعد، أحمد صادق، فى ضوء النمط الآسيوى للإنتاج:تاريخ مصر الإجتمـاعى والإقتصادى، بيروت، دار ابن خلدون، 1975.

15- سمير أمين، وفيصل ياشير، البحر الأبيض المتوسط فى العالم المعاصر(دراسة فـى التطور المقارن:الوطن العربى وتركيا وجنوب أوربا) بيروت، مركـز دراسـات الوحدة العربية، 1988.

16- السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادى، البحريـة الإسـلامية فـى المغـرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، 1969.

17- الشوربجى، أمينة أحمد، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والإقتصادية لمصر فى العهد الفاطمى(358-567ه/969-1171م) القاهرة، 1994.

18- شيخة، جمعة، قرقنـة وجربـة مـن خـلال الرحـلات، تونـس، المطبعـة المغاربيـة للطباعة والنشر والإشهار، 1994.

19- أبوصوة، محمود أحمـد، مقدمـة فـى تـاريخ المغـرب الإجتمـاعى والإقتصـادى، فاليتا، الجا، 1997.

20- الطالبى، محمد، الدولة الأغلبية(184-296/800-909) التاريخ السياسـى. نقلـه الى العربية المنجى الصيادى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 1985.

21- العبـادى، أحمـد مختـار، فـى تـاريخ المغـرب والأندلـس، بـيروت، دار النهضـة العربية، 1981.

22- عبد الله، وديع فتحى، بيزنطة ومسلمو جنوب ايطاليا وصقلية فى عهد باسيل الأول المقدونـى (253-273/867-886) الإسـكندرية، مركـز الإسـكندرية للكتاب، 1991.

23- العدوى، ابراهيم أحمد، قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط، مكتبة نهضة مصر، د. ت.

24- عصفور، محمد أبو المحاسن، المدن الفينيقية، بيروت ، دارالنهضة العربية، 1981.

25- فيصل، شكرى، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين، 1982.

26- لوبيز، روبيرت، ثورة العصور الوسطى التجارية(950-1350) ترجمة محمود أحمد أبوصوة، فاليتا، الجا، 1997.

27- محمد الطاهر الجرارى "الغاية من تأسيس قورينا" فى مجلة البحوث التاريخية، السنة الثامنة، العدد الأول، 1986.

28- محمود أحمد أبوصوة "رؤية جديدة للفتح الإسلامى لليبيا" فى مجلة البحوث التاريخية، السنة الثامنة، العدد الأول، 1986.

29- المدنى، أحمد توفيق، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د. ت.

30- مؤنس، حسين، تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط. الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1991.

31- هايد، ف. تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، عربه عن الفرنسية أحمد محمد رضا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.

ثالثا:- المراجع الغربية:

1- E.Bradford,Mediterranean portrait of a sea.Malta,Tutor publications, 1989.

2- F.Braudel,The Mediterranean,and the Mediterranean world in the age of Philip II.London,Harper Colophon books,1976.

3- C.Cahen "Quelques mots sur les Hilaliens et le Nomadisme" in J.E.S.H.O.1968.

4- Ch.Diehl .Byzantium: Greatness and decline.Rutgers University Press,1957.

5- J.Devisse "Routes de commerce et echanges en Afrique occidentale en relation avec la Mediterranee.Un essai sur le commerce africain medieval du XI au XV siecle" in Revue D' histoire economique et sociale.N.1,1979.

6- S.Donadoni "Egypt under Roman domination" in General history of Africa ,Paris,Unesco,1981.

7- Encyclopedia Britanica. "Malta".

8- Encyclopaedia Universalis. "Chypre".

9- M.G.Fulford "To east and west:the Mediterranean trade of Cyrenaica and Tripolitania in antiquity" in Libyan studies,20,1989.

10- S.D.Goitein, Mediterranean Society.University of California Press,1970.

11- A.Hamadani "Some considerations on the Fatimid Caliphate as a Mediterranean power" in proceeding of the III congress of Arabic and Islamic studies.Ravello,Pub.Napoli,sept.1967.

12- G.F.Hoorani, Arab seafaring in the Indian Ocean in the ancient and early medieval times,Princeton University Press,1955.

13- J.Hure,Histoire de la Sicile,Paris,P. U.F,collection Que-sais-je?1975.

14- R.C.C. Law "North Africa in the Hellenistic and Roman periods " in the cambridge history of Africa ,1978 .

15- J .F.Lazenby. Hanibal's wars . England ,1978.

16- A.R.Lewis,Naval power and trade in the Mediterranean. A. D.500-1100. Princeton University press, 1951.

17- Lucette Valensi, A. Udovitch. Juifs en terre d'Islam. les communautes de Djerba.Editions des archives cotemporaines,1984.

18- G.Ostrogorsky, Histoire de I'Etat Byzantin. Tr.francaise de Gouillard.Paris. Payot. 1983.

19- H.Pirenne, Mohammed and Charlemagne. George Allen and Unwin Barns and Noble.

20- L.Provencal, Histoire de l'Espagne musulmane, Paris, 1953.

21- E.Rossi ,lL domino degli Spagnoli E dei cavalieri di Malta a Tripoli(1510-1551) McMxxxvII.xv.

22- A.D.Taha ,The Muslim conquest and the settlement of north Africa and Spain.University of Exter,U.K,1978.

23- A.M.Watson,Agricultural innovation in the early Islamic world.The diffusion of crops and farming techniques.Cambridge University Press,1983.

24- M.Wenner "The Arab/Muslim presence in Medieval central Europe" in Int.Journal of Middle east studies.vol.12.1980.